مجلة جامعة البعث

سلسلة العلوم التاريخية والجغرافية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة دورية

المجلد 45 . العدد 3

1444 هـ - 2023 م

الأستاذ الدكتور عبد الباسط الخطيب

رئيس جامعة البعث

المدير المسؤول عن المجلة

أ. د. محمود حديد	**رئيس هيئة التحرير**
أ. د. هايل الطالب	**رئيس التحرير**

مديرة مكتب مجلة جامعة البعث

بشرى مصطفى

د. محمد هلال	**عضو هيئة التحرير**
د. فهد شريباتي	**عضو هيئة التحرير**
د. معن سلامة	**عضو هيئة التحرير**
د. جمال العلي	**عضو هيئة التحرير**
د. عباد كاسوحة	**عضو هيئة التحرير**
د. محمود عامر	**عضو هيئة التحرير**
د. أحمد الحسن	**عضو هيئة التحرير**
د. سونيا عطية	**عضو هيئة التحرير**
د. ريم ديب	**عضو هيئة التحرير**
د. حسن مشرقي	**عضو هيئة التحرير**
د. هيثم حسن	**عضو هيئة التحرير**
د. نزار عبشي	**عضو هيئة التحرير**

تهدف المجلة إلى نشر البحوث العلمية الأصيلة، ويمكن للراغبين في طلبها الاتصال بالعنوان التالي:

رئيس تحرير مجلة جامعة البعث

سورية . حمص . جامعة البعث . الإدارة المركزية . ص . ب (77)

. هاتف / فاكس : 2138071 31 963 ++

. موقع الإنترنت : www.albaath-univ.edu.sy

. البريد الالكتروني : magazine@ albaath-univ.edu.sy

ISSN: 1022-467X

شروط النشر في مجلة جامعة البعث

الأوراق المطلوبة:

- 2 نسخة ورقية من البحث بدون اسم الباحث / الكلية / الجامعة) + CD / word من البحث منسق حسب شروط المجلة.
- طابع بحث علمي + طابع نقابة معلمين.
- **اذا كان الباحث طالب دراسات عليا:**

يجب إرفاق قرار تسجيل الدكتوراه / ماجستير + كتاب من الدكتور المشرف بموافقته على النشر في المجلة.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية:**

يجب إرفاق قرار المجلس المختص بإنجاز البحث أو قرار قسم بالموافقة على اعتماده حسب الحال.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية من خارج جامعة البعث :**

يجب إحضار كتاب من عمادة كليته تثبت أنه عضو بالهيئة التدريسية و على رأس عمله حتى تاريخه.

- **اذا كان الباحث عضواً في الهيئة الفنية :**

يجب إرفاق كتاب يحدد فيه مكان و زمان إجراء البحث ، وما يثبت صفته وأنه على رأس عمله.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (العلوم الطبية والهندسية والأساسية والتطبيقية):**

عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1- مقدمة

2- هدف البحث

3- مواد وطرق البحث

4- النتائج ومناقشتها .

5- الاستنتاجات والتوصيات .

6- المراجع.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (الآداب – الاقتصاد– التربية – الحقوق – السياحة – التربية الموسيقية وجميع العلوم الإنسانية):**
- عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1. مقدمة.
2. مشكلة البحث وأهميته والجديد فيه.
3. أهداف البحث و أسئلته.
4. فرضيات البحث و حدوده.
5. مصطلحات البحث و تعريفاته الإجرائية.
6. الإطار النظري و الدراسات السابقة.
7. منهج البحث و إجراءاته.
8. عرض البحث و المناقشة والتحليل
9. نتائج البحث.
10. مقترحات البحث إن وجدت.
11. قائمة المصادر والمراجع.

7- يجب اعتماد الإعدادات الآتية أثناء طباعة البحث على الكمبيوتر:

أ- قياس الورق 17.5×25 B5.

ب- هوامش الصفحة: أعلى 2.54- أسفل 2.54 – يمين 2.5- يسار 2.5 سم

ت- رأس الصفحة 1.6 / تذييل الصفحة 1.8

ث- نوع الخط وقياسه: العنوان . Monotype Koufi قياس 20

. كتابة النص Simplified Arabic قياس 13 عادي . العناوين الفرعية Simplified Arabic قياس 13 عريض.

ج . يجب مراعاة أن يكون قياس الصور والجداول المدرجة في البحث لا يتعدى 12سم.

8- في حال عدم إجراء البحث وفقاً لما ورد أعلاه من إشارات فإن البحث سيهمل ولا يرد البحث إلى صاحبه.

9- تقديم أي بحث للنشر في المجلة يدل ضمناً على عدم نشره في أي مكان آخر، وفي حال قبول البحث للنشر في مجلة جامعة البعث يجب عدم نشره في أي مجلة أخرى.

10- الناشر غير مسؤول عن محتوى ما ينشر من مادة الموضوعات التي تنشر في المجلة

11- تكتب المراجع ضمن النص على الشكل التالي: [1] ثم رقم الصفحة ويفضل استخدام التهميش الإلكتروني المعمول به في نظام وورد WORD حيث يشير الرقم إلى رقم المرجع الوارد في قائمة المراجع.

تكتب جميع المراجع باللغة الانكليزية (الأحرف الرومانية) وفق التالي:

آ . إذا كان المرجع أجنبياً:

الكنية بالأحرف الكبيرة . الحرف الأول من الاسم تتبعه فاصلة . سنة النشر . وتتبعها معترضة (–) عنوان الكتاب ويوضع تحته خط وتتبعه نقطة . دار النشر وتتبعها فاصلة . الطبعة (ثانية . ثالثة) . بلد النشر وتتبعها فاصلة . عدد صفحات الكتاب وتتبعها نقطة.

وفيما يلي مثال على ذلك:

–MAVRODEANUS, R1986– **Flame Spectroscopy**. Willy, New York, 373p.

ب . إذا كان المرجع بحثاً منشوراً في مجلة باللغة الأجنبية:

. بعد الكنية والاسم وسنة النشر يضاف عنوان البحث وتتبعه فاصلة، اسم المجلد ويوضع تحته خط وتتبعه فاصلة . المجلد والعدد (كتابة مختزلة) وبعدها فاصلة . أرقام الصفحات الخاصة بالبحث ضمن المجلة.

مثال على ذلك:

BUSSE,E 1980 Organic Brain Diseases **Clinical Psychiatry News** , Vol. 4. 20 – 60

ج. إذا كان المرجع أو البحث منشوراً باللغة العربية فيجب تحويله إلى اللغة الإنكليزية و التقيد

بالبنود (أ و ب) ويكتب في نهاية المراجع العربية: (المراجع In Arabic)

رسوم النشر في مجلة جامعة البعث

1. دفع رسم نشر (20000) ل.س عشرون ألف ليرة سورية عن كل بحث لكل باحث يريد نشره في مجلة جامعة البعث.
2. دفع رسم نشر (50000) ل.س خمسون الف ليرة سورية عن كل بحث للباحثين من الجامعة الخاصة والافتراضية .
3. دفع رسم نشر (200) مئتا دولار أمريكي فقط للباحثين من خارج القطر العربي السوري .
4. دفع مبلغ (3000) ل.س ثلاثة آلاف ليرة سورية رسم موافقة على النشر من كافة الباحثين.

المحتوى

اسم البحث	اسم الباحث	الصفحة
مظاهر التلوث في الغرب الإسلامي إبان العصر الوسيط	د. بسام العلوش	44-11
التدابير البيئية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط	د. بسام العلوش	90-45
متطلبات الزواج والسن المناسب له في ظل المنعكسات الاقتصادية للحرب على سورية دراسة ميدانية على عينة من سكان حي الرميلة في مدينة جبلة	ذكريا عباس د. إيفا خرما د. مدى شريقي	140-91
البعد الإبستمولوجي في نظرية المعرفة الموضوعية عند كارل بوبر	محمود حسن د. إبراهيم رزوق	176-141

مظاهر التلوث في الغرب الإسلامي إبان العصر الوسيط

أ.م.د. بسام محمد العلوش

قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة البعث

الملخص

تتناول الدراسة واقع الغرب الإسلامي في ظل ما تعرض له من أزمات طبيعية وبشرية وصناعية وسياسية، أدت إلى حدوث تلوث أضرّ بالبيئة ، كما تهدف إلى تبيان ذلك الضرر في ظل الواقع الحالي من خلال إجراء مقاربات تاريخية للنهوض بعلم التاريخ، كونه يحتل مكانة أصلية بين مختلف التخصصات التي تعنى بالعلوم الإنسانية والتي تهتم بالأوبئة وتداعياتها البيئية، والرقي بواقع المؤرخين إلى مستوى المفكرين المتدخلين بالشأن العام، كون البيئة تمثل أساساً في صيرورة الحياة واستمراريتها.

كلمات مفتاحية: التلوث، البيئة، الهواء، الدخان، الأبخرة، الضوضاء، التلوث السمعي، التلوث البصري، المناجم، الأوبئة، الطبيعة.

Abstract

The study deals with the reality of the Islamic West in light of the natural, human, industrial and political crises that have led to pollution that has affected the environment, and aims to show that damage in the current reality through historical approaches to the advancement of the science of history, as it occupies an original place among the various disciplines concerned with the humanities and which are concerned with epidemics and their environmental repercussions, and to raise the reality of historians to the level of intellectuals interfering in public affairs, as the environment is the basis for the process and continuity of life.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى تبيان أنواع التلوث في الغرب الإسلامي، ورصد العلاقة بين تلوث الهواء ونقاوته في الصحة الجسدية والبيئة السليمة، وتتبع أثر الكوارث والجوائح والأوبئة، وأثر قوى الإنتاج في البيئة،

منهج البحث:

تم الاعتماد على المنهج التاريخي، الوصفي و الاستقرائي و الاستنتاجي، وذلك من خلال تحقيق النصوص التاريخية لنبش المطمور وإنطاق المسكوت في ظل قلة المعلومات المصدرية عن ظاهرة التلوث للحصول ما أمكن على معطيات تخدم البحث

إشكالية البحث:

هل عرف المجتمع خلال الحقبة المدروسة مظاهر التلوث؟ وماهي الأسباب التي أدت إلى تلوث الهواء؛ الذي أضرّ بالإنسان والبيئة على حدّ السواء؟

و ماهي الآثار التي انسحبت على مناحي الحياة وقطاعات الإنتاج؟

مقدمة:

لا تخلو معالجة موضوع التلوث في العصور الوسطى من مغامرة في التفكير، فهو موضوع يتسم بكثير من اللبس والضبابية والاستعصاء على الفهم الدقيق، كونه يعكس تجلياً من تجليات أزمات الشح المصدري في مجال الحقل الايكولوجي إضافةً إلى المعلومة التي يستند إليها المؤرخ في البناء والتفسير والتحقيق في مراحل الجوائح والكوارث، التي جاءت غالبا ناقصة أو مشوهة أو عصية على الاختراق. في إطار الإعداد للبحث نستحضر مقولة الفيزيائي ديفيد دويتش في كتابه "بداية اللانهاية": ((إننا إذا تجرأنا على الفهم، يصبح التقدم ممكنا في كل المجالات العلمية والسياسية والأخلاقية)) [1]. بالتالي سيكون

[1] - ديفيد دويتش: بداية اللانهاية، ترجمة دينا أحمد مصطفى، مراجعة، مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي، مصر، ط1، 2016م، ص 205.

الموضوع، محاولة لرسم الخطوط الأولية، وليس تقديم إجابات دقيقة، لأن دراستنا للمتغيرات تستند إلى قراءات جديدة يقدمها النص التاريخي والفقهي.

إن نظرة راصدة لتاريخ البشرية يفصح أن الأمراض ونقل العدوى والتلوث شكلت بامتياز نقطة تحول في تاريخ البشرية، فكانت وراء قيام وسقوط إمبراطوريات وحضارات وحسبنا أن وباء الطاعون الجستنياني سنة541-543م، ساهم في تحولات تاريخية ضربت أركان الإمبراطورية البيزنطية، كما ساهم في بروز حقبة جديدة أيضا ، حيث تمخض عن هذا الوباء نزيف ديموغرافي كبير جعل الدولة البيزنطية تدخل حقبة الضعف والانكماش الاقتصادي، فكان طاعون جستنيان سبباً قوياً عجّل بنهاية الإمبراطورية البيزنطية، وبداية ميلاد حقبة الحضارة العربية الإسلامية الفتية التي ورثت مجد البيزنطيين كما يذهب إلى ذلك هنري بيرين.

هذه الظاهرة تشكل إحدى أهم إرهاصات العصر الحالي كنتيجة من إفرازات الثورة الصناعية والكيماوية الحالية، و بحكم التطور العلمي التقني، و التكنولوجي، و المعلوماتي في عصرنا، نستطيع أن نعرف الكثير عن التلوث البيئي، يضاف إليه الوعي الذي وصل إليه إنسان العصر الحالي. أما نقص المعطيات عن العصور الوسطى تبقي نتائج البحث رهينة المعطيات التاريخية وتأويلاتها. بالتالي ما سيقدمه الباحث ضمن البحث المطروق، هو مجرد احتمالات وفرضيات استنتجت مما ذكرته المصادر التاريخية، التي ألمحت إلى مؤشرات أولية عن الاهتمام بقضية التلوث البيئي في مجتمع الحقبة المدروسة.

مظاهر التلوث في العصر الوسيط

تعد الصناعات الثقيلة، و مصادر الطاقة المختلفة، ووسائل النقل والمعامل الكثيرة المنتشرة في كل مكان في عالم اليوم من أهم عوامل التلوث حالياً. فمن المعرف أن هذه الأمور لم تكن موجودة في العصور الوسطى، و إن وجد البعض منها لم تكن لتصل إلى درجة ما عليه اليوم، بالتالي ماهي أهم مسببات التلوث التي نغصت حياة مجتمع العصر الوسيط في المنطقة المدروسة ؟

إن قراءة النصوص التاريخية ، للحقبة المدروسة، تشير إلى بعض مظاهر التلوث التي سيحاول الباحث، تجميعها تحت عناوين عدة .

أ- المظاهر الطبيعية

مما لا شك فيه أن عوامل التلوث ليست من منشأ واحد، منها ما هو خارج سيطرة الإنسان و هي العوامل الطبيعية. ومنها ما هو من عمل الإنسان، بالتالي فإن آلية التعامل مع هذين المصدرين تختلف باختلاف و عي الإنسان و قدرته على السيطرة عليهما و فق الامكانيات المتاحة لكل عصر.

1- تلوث الهواء

إن إعادة استقراء النصوص التاريخية والنبش فيها تأبى إلا أن تنطق، بكل ما هو جديد، فقد شغل تلوث الهواء حيزاً واسعا من اهتمامات المؤرخين [1]، باعتباره أساس الحياة البشرية وسلامتها.

[1] - كان من جملة من اهتموا بقضية التلوث البيئي وتأثير الهواء في صحة البشر :

الكندي (ت 256هـ/870م) اهتم بمعالجة التلوث الهوائي، الرازي (ت 313هـ/ 925م) حين استشاره عضد الدولة البويهي في بناء البيمارستان العضدي، وكذلك ابن أحمد التميمي (ت 370هـ/ 980م) للاستزادة، لطف الله قاري ينبع: التلوث الهوائي قديماً وحديثاً، مجلة الفيصل، العدد 187، الكويت، يوليو 1992م، ص 89.

ولعل أبرز العلماء العرب المسلمين الذين عالجوا قضية التلوث الهوائي ابن سينا فقد خصص في كتابه القانون في الطب فصلاً كاملاً لذلك قدّم تعريفاً للهواء منسجماً مع التعريف العلمي المعاصر له أن مصدر الغلاف الجوي للأرض يتكون من الغازات والأبخرة التي نتجت عن الماجما [1].

وقد أكد ابن سينا [2] في مواضع أخرى أن الهواء النقي يجب ألا يخالطه أي جسم غريب وأن صحة الأجسام والأرواح البشرية تكمن في اعتدال وصفاء الهواء، وبالتالي مخالطته للأجسام الغريبة تعكره فينعكس ذلك سلباً في مزاج وصحة البشر، وهو عين ما ذهب إليه علماء اليوم، عندما رأوا أن التلوث هو وجود مواد ذات تركيب كيميائي تؤثر في البيئة وصحة البشر، وبذلك يكون ابن سينا قد أدرك أهمية المحافظة على البيئة، ودورها في الصحة العامة.

و ضمن إطار الحقبة المدروسة توحي النصوص التاريخية أن البيئة وتأثيرها في حياة المجتمعات البشرية قد استرعت انتباه العلامة ابن خلدون [3]، فقد وصف المناطق الرطبة أنها قابلة للعفن جالبة للأمراض والجراثيم، يقول: " ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض فإن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة ... والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقية"

[1] - أصل الكلمة لاتينية تعني في اللغة العربية الصُهارة وهي عبارة عن مزيج من المواد السيكانية المنصهرة أو بمعنى آخر الصخور المنصهرة أو الشبه منصهرة مع المواد الصلبة المتطايرة من البراكين . للاستزادة، ابن سينا: القانون في الطب، تحقيق وشرح: حسان جعفر، دار ومكتبة هلال، 1986م، ص 88-89.

[2] - ابن سينا: القانون في الطب، ص 88.

[3] - ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المقدمة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط3، 1427هـ/ 2006م، ج1، ص370

لم يغب عن بال ابن خلدون [1]، قضية خطرة هي قضية الازدحام السكاني بالازدحام السكاني، وما ينجم عنها من ضرر جراء تلوث الهواء وذلك للعلاقة الطردية بين عدد السكان والاستهلاك بصوره المختلفة، فقد أشار إلى ذلك بصراحة قائلاً: " ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات"

كما فطن ابن خلدون [2] إلى العلاقة الثنائية بين المدينة والبادية ، من صلاح الأكثر لسكن البشر إذ وصف البيئة البدوية قائلاً: "و أما أوعيتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات".

2- <u>الكوارث والجوائح والأوبئة</u>

أشار الإخباريون في بطون مصادرهم إلى بعض المعلومات الدفينة التي تتعلق بقسوة الطبيعة، سواء أتعلق الأمر بشح الأمطار وفرطها، أم الزلازل، أم الأوبئة، أم المجاعات، أم الحرائق، أم الجراد، وهذه الإشارات ليست إلا نتفاً لا تسمح برصد معلومات كافية، لكنها تساعد بشكل أو بآخر في رصد آثارها المتعددة الجوانب في صحة الإنسان وسلامة البيئة.

ورغم صعوبة توظيف المنهج الإحصائي في تتبع الجوائح كونها تعد من القضايا الملغزة في تاريخ العصر الوسيط، لاعتبارات ما يتعلق منها بالمتون المصدرية، وسنحاول من خلال البحث، قدر الإمكان تحويل النصوص إلى أرقام للخروج ببعض الملحوظات المنهجية المفيدة في رصد الآثار المشينة للظواهر الطبيعية، على صحة الإنسان، وتدمير البيئة.

وبداية يجب الاعتراف أن الباحث قد أخذ عينات اختبارية، وما التعليقات إلا اجتهادات شخصية في ضوء ما أسعفتنا به المصادر التاريخية وليست يقينية أو حتمية.

[1] - ابن خلدون: المقدمة، ج1،371.
[2] - ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص371.

توصل الباحث إلى الجدوليين الآتيين وبناء عليهما سنقدم ملحوظاتنا:

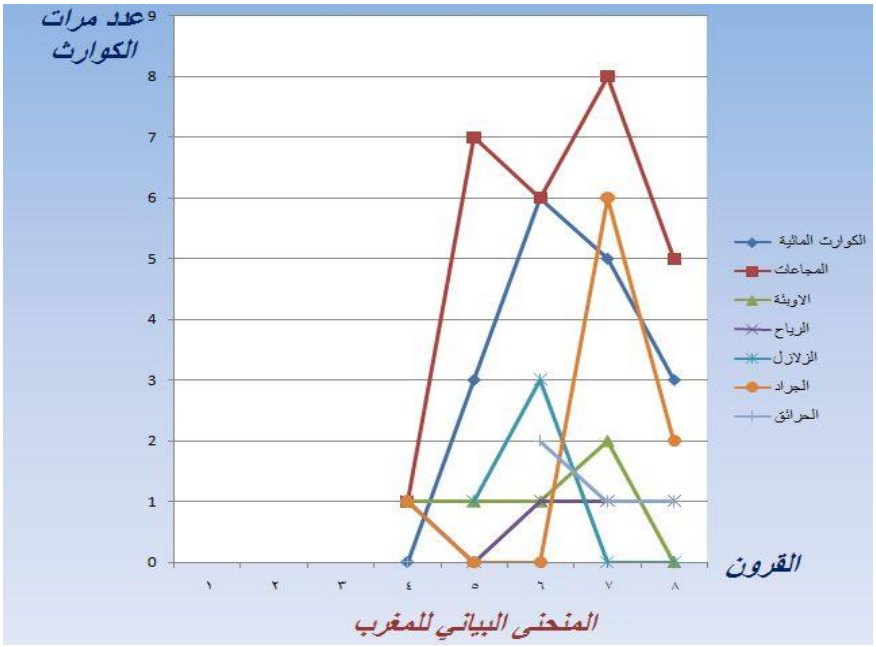

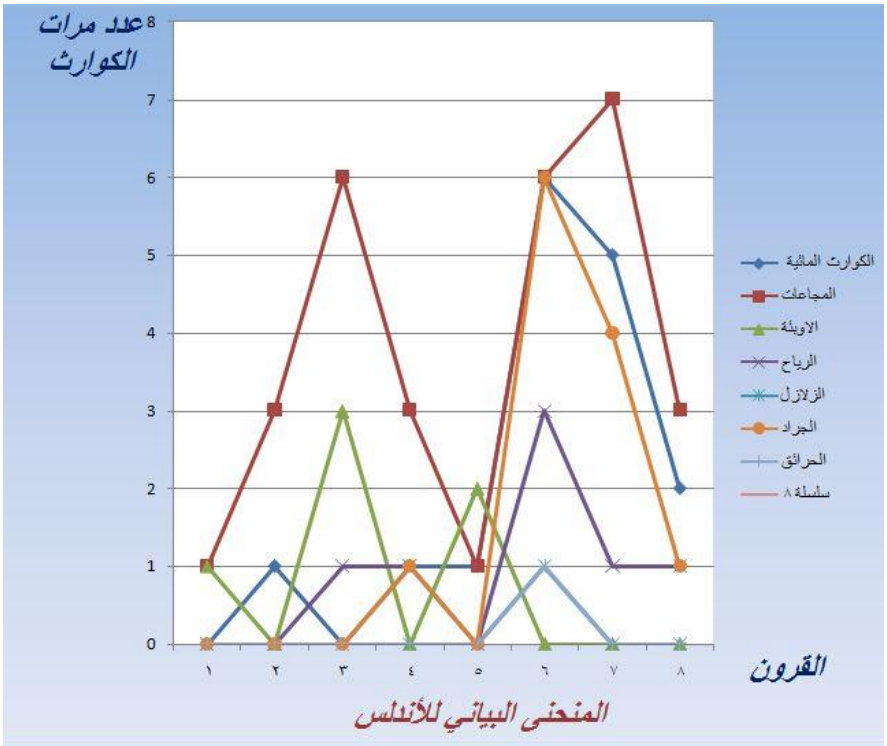

انطلاقا من القراءة للجدولين أعلاهما نتبين أنواع أخرى من التلوث الطبيعي:

أ- الأمطار و السيول

تعد قلة الأمطار أو غزارتها نائبة من نوائب الدّهر، لضررها البالغ على الحاصلات الزراعية، وأثر ذلك في حياة الناس، خاصة إذا علمنا أن المجتمع كان مجتمعاً زراعياً بالدرجة الأولى. وأشار ابن خلدون [1]، إلى تأثير ذلك في الزراعة قائلاً: " ... ويقل ويكثر الزرع والثمار والضرع على نسبته "

يجب الانتباه إلى حقيقة مفادها إن المجتمع في ذلك الوقت لم يكن يملك تقنيات التنبؤ بالمناخ كما هو اليوم، وبالتالي لم تكن عندهم القدرة لتجنب الضرر كما هو الحال في العصر الحالي، فالأمطار الغزيرة تتسبب بسيول جارفة يكون ضررها كبيراً، خاصة إذا انعدمت التجهيزات المائية، فتغمر عدداً من الأراضي الزراعية، وتصاب التربة بالتملح، إضافة إلى تحطيم السدود الزراعية الضعيفة التي تقيمها الدولة ومثال ذلك ما حدث في تينمل، حيث أصيبت المنطقة بـ سيلانات وأمطار غزيرة سنة 557هـ/1161م [2].

ويمدنا الناصري [3]، بنص يوضح ما دمرته السيول من مرافق عامة، فضلاً عما أزهقته من أرواح، الأمر الذي مهد لتفشي الأوبئة بعد تحلل الجثث، وتكدس أكوام القمامة، ما ينجم عنه من أمراض وأوبئة تؤثر سلباً في صحة الإنسان، وسلامة البيئة، حيث يقول: "... أتى سيل بوادي فاس ... فهدم السور وحمل الشباك وخرب الجنات وقلع الأشجار العظيمة وردم القناطر والديار..."

وبجانب آخر يطالعنا ابن القطان [4]، عما تعرضت له مراكش، جراء السيول من تخريب للمحاصيل وانجراف التربة و تملحها، وهجرة المناطق المزروعة، وبذلك

[1] - ابن خلدون: المقدمة ج1، ص 282

[2] - ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م، ج1، ص389.

[3] - الناصري: كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، طبعة البيضاء، دار الكتاب، 1954م ،ج3، ص180.

[4] - ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، نشره محمود علي مكي، طبعة تطوان، المطبعة المهدية ، 1920م، ص 256.

تجدب القرى والمزارع والبساتين فتتحول المنطقة من منطقة خضراء إلى مناطق جرداء متصحرة، وتراجع الحزام الأخضر ما ينجم عنه تأثير سلبي في البيئة وهو ما أكده ابن عذارى عندما أشار [1]، أن الأندلس أمحلت وأجدبت جراء السيول الجارفة والأمطار الغزيرة، وهو ما أكده ابن خلدون[2] ، حول فرار المزارعين وانحسار المساحة المزروعة لفائدة الرعي ، وقد ألمح إلى ذلك أحد الباحثين [3]، فقال: "قد تؤدي تلك الحركات إلى غلبة مناطق الرعي على مناطق الزراعة".

فهذا التلازم بين الدمار المائي، والهجرة القسرية، هو تلازم تصاعدي كان يزيد من هواجس الخوف لدى الإنسان في الفرار مما ينعكس في زيادة التلوث وانتشار الوباء، وبالتالي يمثل تهديداً واضحاً في الصحة العامة، و البيئة، وانحسار واضح للبستنة التي تساعد في عملية التركيب الضوئي وتنقية الهواء.

وأمام ضعف الإمكانات للسلطة الحاكمة، وتدني المساعدات والإجراءات المنطقية الحكومية خاصة أيام الأزمات والجوائح لم يكن أمام بعض أفراد المجتمع غير عارفين بقوانين الطبيعة من منقذ سوى رجال الدين الذين تمثلوا آنذاك بالمتصوفة ومن ذلك ما ورد عن المتصوف أبي العباس السبتي من شكوى أحد العمال حول الضرر الذي لحق الفلاحين بسبب الرياح الشرقية وطلب تحويلها لتصير غربية [4]. وهذا النص يعطينا تصوراً واضحاً عما تفعله الرياح والأعاصير ومدى تأثيرها في ذهنية المجتمع.

[1] - ابن عذارى: البيان ج2، ص28

[2] - ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص 302.

[3] - هاشم العلوي: مجتمع المغرب الأقصى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1990م، ج2، ص41.

[4]- ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب الرباط ، طبعة البيضاء 1984، ص 474 .

ب- الرياح

تعد الرياح جائحة خاصة إذا ما ترافقت مع أعاصير مدمرة تكون سبباً في نقل مخلفات القاذورات، وجلب العدوى والأمراض، فضلا عن مخلفاتها التدميرية في قلع الزرع والأشجار وتأثير ذلك في البيئة جراء نقص الغطاء النباتي [1].

وقد أشارت المصادر التاريخية إلى أن الرياح عندما تكون في غير وقتها تؤدي إلى إتلاف المنتوجات الزراعية، وما يعقبها من "وباء عظيم وأمراض كثيرة" [2].

كما ألمح الرحالة الجغرافيون [3]، وبشدة إلى خطورة الرياح واضعين في الحسبان أن منبت هذه الرياح هو الصحراء وبذلك تأتي محملة بالرمال على منطقة آهلة بالبشر، والزرع، فتسبب ضرراً في الغطاء النباتي بمعنى أن أضرارها ستكون غير محدودة النتائج في البيئة والإنسان.

ج- الجراد

لا شك أن الجراد يهدد عيش الإنسان خصوصاً إذا ما ترافق ذلك مع جفاف الأمطار وقلة تساقطها، وذلك لأن الأمطار تقتل البويضات [4]. ويبدو أن المصادر قد أدركت بعناية أنواعه الخطيرة عندما أشارت إلى أن أخطرها أكثر فتكاً تلك التي تأتي من الصحراء (الجراد الصحراوي) [5].

---

[1] - ابن عذارى: البيان، ج1، ص376 ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص145-146

[2] - مؤلف مجهول: نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، مخطوط، ضمن مجموع، الخزانة العامة الرباط، رقم (2152 د) ، ص 118

[3] - ليون الأفريقي: وصف افريقيا ، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 1 ، الرباط 1980، ج1، ص81

[4] - عبدالهادي التازي: آفة الجراد ظاهرة التعاون في التاريخ الدولي للمغرب، الرباط مطبوعات المملكة المغربية، 1989م، ص76

[5] - محمد الحبيب الخوجة الجراد بين الدراسات الحديثة وبين التصورات الموروثة، الرباط، مطبوعات المملكة المغربية، 1989م، ص 61.

كان اكتساح الجراد يخلف دماراً بيئياً وعجزاً غذائياً ، إن لم نقل مجاعة، وذلك لقدرته الفائقة على إتلاف مئات الأغذية يومياً فتتزامن المجاعة مع الغلاء مما يؤدي إلى تفشي الوباء والعجز الطبي [1]

فالجراد كان بمثابة الشرارة الداعمة لانتشار الوباء وتراجع المساحات المزروعة والقحط [2].

د – الحرائق

تركت كوارث الحرائق ضرراً على صحة الإنسان جراء الدخان والغازات المنبعثة، فضلا عن دمارها للنظام البيئي حيث طالت الأراضي الزراعية والغابات، مما ساهم في انحسار المناطق المزروعة على حساب المناطق الرعوية والصحراوية، ولعل ما زاد أضرارها، بدائية وسائل المكافحة والإطفاء، وهو ما يؤيده ابن القطان [3]، أن الحريق الذي شب في قرطبة بسوق الكتان انتقل إلى الأسواق المجاورة. بمعنى خروج النار من المنطقة التي شهدتها وذهاب ضحايا جراء ذلك إما خنقاً بسبب الغازات السامة، أو حرقاً.

بالمقابل تزداد وتيرة الحرائق وما يرافقها من وفاة للناس ونفوق للحيوانات وتلوث بيئي عندما تكون المخازن والدكاكين والمرافق، متنوعة بمواد ذات أثر كيميائي وقابلة للاشتعال، كالكبريت، ومواد الصباغة، ويزداد الموقف صعوبة في أوقات الصيف خاصة في المناطق ذات الطبيعة الحارة،وهذا ما حدث في مدينتي مراكش وفاس، حسبما وصفت بعض المصادر التاريخية [4].

---

[1] - ابن القطان: نظم الجمان، ص 226.

[2] - الجراد يلتهم في الكيلومتر الواحد من السرب حوالي 100 ألف طن من النباتات الخضراء في اليوم، وهو ما يكفي لغذاء نصف مليون شخص لمدة سنة (الجرادة تأكل 1,5-4 جرام - والكيلومتر المربع منه يحتوي على 50 مليون جرادة على الأقل). عبدالهادي التازي: آفة الجراد، ص 80-84.

[3] - ابن القطان: نظم الجمان، ص222

[4] - ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ، محمد زنيبر ، محمد بن تاديت ، عبد القادر زمامة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط1 1406 هـ / 1985 م ، ص 257-258.

هـ – الأوبئة و الأمراض الناجمة عن الظروف الطبيعية

يعد الوباء نتيجة حتمية للتقلبات المناخية حيث تتصاعد وتيرة الأمراض والأوبئة والمجاعات مع تزايد الكوارث الطبيعية، ولا غرو من القول إنها أثرت في أحوال الناس وأوضاعهم الصحية، وحصدت نفوساً عديدة من البشر، حتى أن الموتى كانت "تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغسل" [1]. وبالمقابل أثرت الأمراض والأوبئة في حركة التجمعات البشرية بحثاً عن مواطن سليمة خالية من المرض والعدوى، كما حدث سنة 571هـ/1175م، عندما ضرب الطاعون سكان المغرب وبلغ عدد الموتى بمدينة مراكش وحدها "في كل يوم مائة وتسعين شخصاً" [2]. فكان هذا الوباء كفيلاً لإزعاجهم في اتجاهات مختلفة بحثاً عن مواطن سليمة باتجاه الأندلس لكن النتيجة كانت نقل العدوى [3]. ويتابع ابن عذارى [4]، أن أولاد وأخوة الحكام الموحدين ذهبوا ضحية المرض. بمعنى أن فيروساً قد أصاب هواء المدينة وماءها فكانت نتيجة المرض عامة.

وإن كانت المصادر قد بالغت في أعداد الموتى إلا أنها تعطينا تصوراً عن ضعف إمكانات الدولة الصحية، وعجز جهازها الطبي والوقائي، خاصة وقت الأزمات والكوارث، وأثر ذلك في حالة البلاد، وبذلك بقاء الإنسان – مدار البحث – تحت رحمة الطبيعة، بمعنى ن الطاعون كأي وباء أثر في ديموغرافية البلاد، وكان له انبعاث على انتشار التلوث ونقل الأمراض والعدوى [5]. الأمر الذي استرعى انتباه ابن خلدون [6]، حول فظاعة الطاعون قائلاً: "فخربت الأمصار والمصانع والمعالم وخلت الديار والمنازل" .

---

[1] - محمد الأمين البزاز: حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، العدد 18، 1994م، ص 179.

[2] - ابن عذارى: البيان، ج4 ص24.

[3] - ابن عذارى: البيان قسم الموحدين، ص 132.

[4] - ابن عذارى: البيان، ج4 ، ص25

[5] - مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد، مطبعة جامعة الاسكندرية، مصر، 1985م، ص 188.

[6] - ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص 38.

حصيلة ماسبق من النصوص التاريخية يمكن القول: تكمن خطورة الجوائح في تهديد النظام البيئي، والصحة العامة، لتأثيرها البالغ في انجراف التربة وتخريب الحزام الأخضر، فضلاً عن أثرها العميق في انبعاث الغازات السامة جراء الحرائق، وكانت خطورتها تتزايد في ظل ضعف الإمكانات التكنولوجية، الأمر الذي جعل الإنسان في كثير من الأحايين يفر أمام قسوة الطبيعة تاركاً أراضيه الزراعية، باحثاً عن ملجأ آمن الأمر الذي يشكل خللاً بيئياً لصالح المناطق القاحلة، وازدحاماً سكانياً في المدن جراء الضغط المتزايد في أعداد البشر، فتزداد نسبة التلوث بفعل زيادة السكان، وأيضاً جراء ممارسة الأنشطة الصناعية المتزايدة داخل المدينة.

ب- <u>المظاهر الإنسانية المسببة للتلوث</u>

إضافة لما كانت تسببه الطبيعة من مشاكل ومنغصات لحياة الإنسان، إلا أن الإنسان نفسه ساهم إلى حد ما في تفشي ظاهرة التلوث و إن كان بشكل مباشر أم غير مباشر، بعلم أم بدون علم من خلال مجموعة من السلوكيات أو النشاطات الغير متعقلة.

1- الحروب :

من الثابت أن الحروب والفتن والثورات ، تؤثر تأثيراً بالغاً في الأوضاع الصحية لما يرافقها من قتلى، وحرائق للمزروعات، والبساتين، وتدمير للبنى التحتية، كحفر الخنادق، وتخريب الطرق، وتهديم الأبنية، مما يحدث دمار بيئي، كما أن اضطراب حالة أمن الدولة خصوصاً في أوقات ضعف سلطتها ، ينعكس غالباً على الواقع الصحي والخدمي للمرافق العامة، فبدلاً من تثمير الجهود الحكومية تجاه العناية بالمدينة وقطاعاتها الخدمية تدار الأموال تجاه الحروب، ومعلوم أن تكلفتها باهظة الثمن، الأمر الذي يرهق الخزينة المالية، فقد

أنفق الأمير علي بن يوسف بن تاشفين سنة (520هـ /1126م) " في سور مراكش وحده أيام الحرب "سبعين ألف دينار من الذهب " [1].

وكان يرافق الاستعداد للحملات العسكرية اصطحاب المؤن وإعداد الأقوات مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار والغلاء، وغالباً ما يقترن ذلك مع زيادة أجرة الأطباء والأدوية ، مما ينعكس سلباً على المستضعفين في المجتمع. ويصف ابن خلدون مسيرة السلطان أبي الحسن لحرب بني عبد الواد أواسط سنة (735هـ/1335م) " وسار يجر الشوك والمدد من أمم المغرب ". وهذا الوصف وإن كان مبالغاً به إلا أنه يبين تكلفة الحروب ومدى قسوتها الاقتصادية على الناس المناحي كافة.

وكان لاستمرار الحروب لعدد من السنوات وقعه على كاهل المجتمع، عامتهم وخاصتهم ، نظراً لما يرافق ذلك من دمار متواصل وشلل في المرافق العامة، وانتشار الأمراض والتلوث، جراء العدوى فالحروب تجبر الإنسان على سلوكيات غير متعقلة كالشراب، والطعام الفاسد، الذي تكون سبباً في الفناء، فقد شهدت مراكش بعد سنة (541هـ/1146م) حصاراً دامياً استمر لمدة تسعة أشهر وذلك من قبل الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، انعدمت خلاله الأقوات، وأكل الناس الجيف، وفرغت مخازن الحبوب ، وهلك خلال الحصار عدد من الناس حتى بلغ عدد الموتى ما يزيد على مائة وعشرين ألفاً، و تزيد المصادر قائلة إن الحيوانات " قد فنيت " [2].

كذلك ساهمت الحروب بشكل أو بآخر في انتشار الوباء والتلوث، وذلك من خلال أعداد القتلى والجثث المتحللة الملقاة في الشوارع، ومن ذلك المجزرة التاريخية التي شهدها المغرب، حين نفذ القائد الموحدي يحيى بن تومرت إبادة جماعية أُثناء حصار لبلة وذلك في (14 شعبان 549هـ/24أكتوبر 1154م) ، حيث أخرج أهلها وصفهم صفوفاً وأمر بقتلهم جميعاً وبلغ عدد القتلى ثمانية

[1]- مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، اعتنى بنشره وتحقيقه يـ . س . علوش ، المطبعة الاقتصادية ، رباط الفتح ، 1936م ، ص 80 .

[2]- مؤلف مجهول: الحلل الموشية ، ص 114 ، ابن عذارى: قسم الموحدين، ص 27.

آلاف رجل، وفي أحوازها أربعة آلاف، وراح ضحية هذه المجزرة عدد من الفقهاء والعلماء [1]. إن ذكر مثل هذه الأرقام يعطينا تصوراً واضحاً عمّا شهده مجتمع المغرب الإسلامي من معاناة أثرت في أوضاعه الصحية والطبية. وبالمثل ما حدث لمدينة أغمات ، عندما أقدم الموحدون سنة 524هـ/ 1130 م ، على قتل عدد كبير من أهلها ولم يستثنوا حتى التجار منهم ، وقد مات ثلاثة آلاف شخص [2].

ولم تخلُ بلاد الأندلس من حدوث كوارث داخلية قضّت مضاجعها، فقد كان لمعركة العقاب (609هـ / 1212م) أثر كبير لما جرته من خراب ودمار على المغرب والأندلس ، حيث عدّت العرب كارثة كبرى، فقد توقفت حركة الحراثة في البوادي المغربية [3]. وتقلصت الأراضي الزراعية وشحت فكانت الخزينة خاوية في أكثر الأحيان، وعدت إيذاناً بالخراب العمراني [4].

إذاً ليس الهدف من ذكر ما سبق إعادة ما درس ، وإنما هو استعراض سريع للأحداث التي عصفت بالمنطقة المدروسة في حقبته الوسيطية ، للقول بأن توالي مثل هذه الوقائع ينبئ دون شك بتعرض مجتمع المغرب الإسلامي لحالة من الفقر المادي ، والانزياحات الديموغرافية القسرية، التي كانت سبباً في ضغط سكاني في العاصمة، والمدن الكبرى وزيادة الأنشطة الصناعية فيها ما يؤثر في سلامة هواء المدينة، فضلاً عن تراجع المساحات المزروعة، وبالتالي شح الغطاء النباتي، فقد شهد القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، هجرات مغاربية نحو المشرق ، كان سببها الأساسي الاضطرابات السياسية .

ذلك كله كان كفيلاً بتراجع المستوى الصحي، وحدوث تلوث بيئي جراء السلوكيات المشينة التي تفرضها الحروب فتجبر الناس إلى إعطاء الشرعية

---

[1]- ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب، ص 254 .

[2]- ابن القطان ، نظم الجمان، ص 116-117 .

[3]- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط 1972، ص 35 .

[4]- حسن علي حسن: الحضارة الاسلامية في المغرب والأندلس: عصر المرابطين والموحدين ،مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980م ، ص 50 .

للمحظور من أكل للجيف، والحيوانات الضارة، وتحلل الجثث التي تؤدي لانتشار العدوى، إضافة إلى ظهور ذهنيات لا عقلانية كالخرافات والشعوذة، في ظل ضعف الإمكانات الطبية وارتفاع تكاليفها وهجرة بعض الأطباء، فضلاً عن انحسار المساحات الخضراء نتيجة الحرائق والتدمير الحربي التي يسببها استخدام الأنفاط، وهو ما أجمع عليه العديد من المؤرخين أمثال، شاخت، جوتين، هاملتون جب، آشتور [1]. إذ إن تلك الحروب والثورات كان لها ضرر على صحة وسلامة البيئة العامة.

2- قوى الإنتاج [2]:

ساهمت قوى الإنتاج كل حسب مكانتها بحدوث تلوث بيئي ومرضي على مستوى الصحة البشرية، وقد تعرضت المصادر التاريخية لذكر الكثير من الصنائع، وسيذكر أهمها حسب الضرر الصحي والبيئي.

- صناعة و دباغة الجلود

إن عملية صناعة الجلود و دباغتها كانت حاجة ملحة وذلك لاستخدامها في العديد من الصناعات هذا من جانب؛ لكنها من الجانب الأخر فقد كانت من الملوثات الخطيرة جداً على البيئة و على صحة الإنسان على حد سواء، لأنها تمر في مراحل عدة لتحويل الجلد من الحالة الخام إلى الحالة الصناعية والاستهلاكية؛ إذ تستخدم فيها مجموعة من المواد سواء أكانت طبيعية أو كيميائية أو لحاء الأشجار، كما كانت تقام بالقرب من المجاري المائية، بسبب حاجتها لكمية كبيرة من الماء [3]، بذلك لا يخفى أيضاً ما تتركه المواد المستخدمة في صناعة الجلد من آثار سيئة على البيئة من ناحية استهلاك المياه ومن المخلفات الملوثة، من شعر و سوائل و مواد كيميائية هذه النفايات

[1] - أنظر حول ذلك، محمود اسماعيل عبد الرازق: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، طور الانهيار ، دار سنا للنشر، القاهرة ط 1 ، 1992 ج 3 ، ق 1، ص 24

[2] - نقصد بها الأنشطة الصناعية الممارسة من قبل سكان تلك الحقبة

[3] - (كل كيلو غرام واحد من الجلد يحتاج ما بين 30-40 لتر من الماء). للاستزادة، مولاي حسن مغار: الحرف والحرفيون بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني، رسالة دكتوراه، مرقونة، جامعة مولاي اسماعيل، مكناس، 2009م، ص 40-49.

الصناعية تشكل خطراً كبيراً على تلوث المياه و نوعيتها و بالتالي على صحة الإنسان و التوازن البيئي للمحيط[1].

بالرغم من الدونية التي احتلتها الدباغة في الفكر العربي الإسلامي، باعتبار تصنيفها من المهن القذرة النجسة [2]، والأعمال المستهجنة، فقد اشتهرت كبرى المدن في الغرب الإسلامي بوجود معامل لصناعة الجلود فقد عدت فاس قاعدة الصناعات الجلدية [3].

تنبأ بعض النوازل الفقهية بوجود دور الدباغة داخل المدن الكبرى، ومن ذلك إحدى نوازل القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، حول وجود بعض دور الصناعة وتحديداً دور الدبغ داخل القيروان [4]، وفي المقابل تشير نصوص أخرى إلى رواج الصناعات الجلدية، فقد حظيت شأوا عظيما في مراكش وسلا، علاوة على مدينة فاس التي كانت توجد بها 86 دارا للدباغة أيام الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، وابنه الناصر [5].

وقد بلغت من الكثرة ما جعل سكان المدينة يتبرمون وينزعجون من روائحها الكريهة، لذلك وجدت أهم مصانعها خارج المدينة [6].

يبدو أن الأرباح التي كانت تجنيها مهنة الجلود قد أغرت العاملين على مزاولتها، بغض النظر عن أضرارها الصحية، ونظراً للاحتجاج عليهم من قبل

---

[1] Manzo, Ousman & Hassidou, Saidou & Ozer, Pierre & Maimouna, Mahaman, (2015). Effets de la modernization de tannerie sur l'impact de ses activité sur la qualité des eaux: cas de la tannerie de Maradi au Niger. International Journal Of Engineering And Science. 5. 30. 38. Pp. 30-31.

[2] - ابن الزيات: التشوف، ص 285

[3] - نشاط مصطفى: التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول 668-759هـ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق الدار البيضاء، السنة الجامعية 1988-1989م ، ص 50.

[4] - الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1981م، ج8، ص446.

[5] - الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1967م، ص 44، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص48 .

[6] - ابن ابي زرع: روض القرطاس، ص 48

سكان المدن، فقد سعوا لإيجاد حل لمخلفات مهنتهم فزاولوها خارج العاصمة والمدن الرئيسية، يذكر ليون الأفريقي [1]، أنه خارج فاس على بعد ميل نحو 20 فرناً. ومع ذلك فضررها كان يؤثر في البيئة نظراً لعددها الكبير مقارنة بذلك العصر.

كما اشتهرت غرناطة في الأندلس خلال ق 8هـ/14م، بصناعة الجلود المدبوغة، وعرفت المدينة مناطق اشتهرت بصناعاتها مثل بـ "باب الفحم" [2].

- **المناجم و عمليات التعدين**

ومن ضمن موارد الانتاج التي أثرت في صحة الإنسان، عمل المناجم واستخراج الموارد الباطنية كالذهب والفضة، الذي شكل أساس دور ضرب النقود، وقد ساهمت من خلال استخدام الفحم والحرق، لصهر المعدن وإذابته لساعات بإلحاق أذى بالبيئة والناس العاملين فيها جراء ما يخرج من ملوثات سامة تلحق أذى بالصحة [3].

إضافة إلى استخراج الحديد، والنحاس، الذي كانت لها أهمية خاصة في صناعة الأسلحة والمعدات الحربية المختلفة مثل السيوف، والرماح، والدروع، علاوة على السكاكين والمجانيق، إضافة إلى القسي والنبال [22]، وعلى سبيل المثال لا الحصر يذكر الجزنائي [23] أن مدينة فاس كانت تضم، دورا لسبك الحديد والنحاس.

[1] - ليون الأفريقي: وصف إفريقيا، ج1، ص225

[2] - ريكاردو كوردوبا دي لالاف: الصناعات المتوسطية في القرن الرابع عشر، ترجمة: إسحاق عبيد،ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، تقديم إسماعيل سراج الدين و آخرون، مكتبة الاسكندرية، 2007م،ص 246

[3] - ريكاردو: الصناعات المتوسطية، ص 248.

[22] - الحميري: الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان ،طبعة بيروت، ط 2، 1984 م ، 330 ، 567 .

[23] – الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص 44 .

وتكاد تسكت المصادر التاريخية المتوفرة بين يدي الباحث عن الحالة الصحية التي يمر بها عمال المناجم، ولا يُعلم فيما إذا روعي فيها الظروف الصحية أم لا ؟.

يبدو أن النظرة الدونية للرقيق من ناحية وللأعمال الحرفية المذكورة من ناحية أخرى أجبرت المؤرخين على التكتم في ذكر الأخبار، اللهم إلا إشارات منفلتة عفوية أثناء سرد أخبار عسكرية أو عبر ترجمة فقيه أو زاهد، وكالعادة لا نجد سبيلاً إلى دراسة الموضوع إلا بالتعويل على مظان أخرى فقهية (النوازل، المسائل، الأجوبة، الفتاوى، كتب التصوف) كانت أم أدبية أم جغرافية.

ولكن يمكن القول: إن عمليات الحفر، والنقل، والتحميل تنقل هواءً ملوثاً ، فضلاً عن الرطوبة العالية التي يتعرض لها العمال ، ناهيك عن الغازات المنبعثة جراء عمليات الحرق التي تخلق جواً خانقاً لدى العمال، خاصة إذا علمنا العدد الكبير للعمال في المنجم الواحد، وهذا ما يستشف من رواية الإدريسي أن عدد العمال المشتغلين في استخراج المعدن بإحدى مناجم السوس بلغ نحو الألف عامل ، وهذا الرقم يعطينا تصوراً واضحاً عن حجم الاختناق والتلوث الذي تعرض له هؤلاء العمال [1].

وبطبيعة الحال يجب ألا ننسى المواد المستخدمة لإذابة المعادن استخراجها والتي هي على الأغلب مواد كيماوية المنشأ، مما يضطر إلى تهوية المناجم، فينعكس ذلك سلباً على البيئة المحيطة. ناهيك عن التلوث السمعي جراء عمليات الضوضاء الناتجة عن الحفر، التي هي صفة ملازمة للعمل في المناجم. من جهة أخرى تتعدد إشارات المصادر إلى عمال المناجم كانوا من العبيد وخاصة من السودان [2].

---

[1] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص 380-392

[2]- ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1979م ، ص 658. الادريسي : نزهة المشتاق، ج 1، ص: 214. *Lewis (Benrard): Race and Color in islam,NewYork,Haroer&Roe, 1971, pp 75, 76,.*

وحسب رواية فريدة لابن حيان [1]، أنه لما دخل موسى بن نصير مدينة سجلماسة "وجد بها قوماً من الأحباش بيوض الألوان كانوا يعملون باستخراج النحاس والذهب" وهو مجال عمل فيه الرقيق في جهات أخرى مثل السوس الأقصى فقد كان "العبيد والخدم يستخرجون التبر" [2]، ومدينة تكدا التي تولى فيها العبيد سبك النحاس[3] . ويستشف من المصادر التاريخية [4] ، أن هؤلاء كانوا يعيشون ظروفا مادية واجتماعية أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها جد قاسية، ومزرية، ولا مراء من القول: إنه قد وقع على عبء هؤلاء تحمل المخاطر الجسام لما ينجم عن استخراج المعادن، والعمل بها من تأثير سلبي في مستوى الصحة الجسدية والتنفسية.

كما شكل العمل بالزليج المدهون بالألوان المختلفة الذي استخدم للتزيين هو الآخر، عاملاً ساهم في أضرار على صحة الإنسان وجهازه التنفسي والعصبي، لما يرافقه من تداخل مواد معينة تشكله المخلفات الكيماوية كالكبريت [5].

- وضمن نطاق التنظيم المورفولجي للمدينة الإسلامية، **احتل الفحامون** مكانة مهمة وذلك للحاجة الماسة لهذا مصدر من الطاقة في ظل عدم معرفة الوقود في تلك الحقبة المدروسة، ومن هنا استغل الفحامون وفرة مادة الخشب لصنع الفحم المستخدم في التدفئة والطهي المنزلي [6].

---

[1]- ابن حيان: كتاب في انساب المغرب، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم (45) بعثة المغرب الأولي إلي الرباط، ورقة 9.

[2]- مؤلف مجهول: كتاب في الجغرافيا، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم (46) بعثة المعهد الاولي إلي الرباط، ورقة 102.

[3] - ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، تحقيق طلال حرب، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1987م، ص 678.

[4] - ابن ابى زيد القيرواني: النوادر والزيادات علي ما في المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق محمد عبد العزيز الدباغ، دار الغرب الاسلامي، ط1،1999م، م12، م13، ص 486، ابن حيون المغربي: المجالس والمسايرات، تحقيق مجموعة اشراف: محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط2،1997م، ص 417.

[5]- الحميري : الروض المعطار ، ص : 235 - 236

[6] - ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص204

إضافة لعملهم الصناعي ، فتحمّلت هذه الفئة في المجتمع الضرر الصحي الذي وقع عليها.

- قليلة هي الصناعات التي مورست داخل المدن **كصناعة الفخار**، فقد بوشرت صناعته في قاعات وسعت فيما بعد لتتحول إلى دور للفخار[1]، وهذا ما أثر في وضع الساكنة ودفع بها إلى الهجرة خارج أسوار المدن، كونها تستخدم النار والزبل والفحم كأساس في العملية الصناعية [2]. وبذلك بدأت هذه الأخيرة تتوسع شيئا فشيئا.

وبما أن العامل الديني كان حاضرا في ثقافة و ذهنية الناس آنذاك، فقد أدى الفقهاء[3] دوراً متعاظما في تنظيم النشاط الحرفي من خلال وضع الضوابط المؤطرة للنشاط الاقتصادي داخل المدينة الإسلامية، منعاً للضوضاء [4].

ج – الصرف الصحي:

يستدعي مخيال الباحث أسئلة عدة، هل عرف المجتمع المدروس نظام تصريف المياه، وكيف تعامل معها، ما الطرق الهندسية التي اتبعها لعمل المصاريف، وطالما أن المجتمع خاضع للحلال والحرام الشرعي، وخاصة فيما يتعلق بموضوع الطهارة، كيف كان يتم التخلص من الغائط في البيوت، وهل وجدت أصلاً مراحيض لهذا الغرض؟

لا مشاحة أن الإجابة عن هذه التساؤلات من الصعوبة بمكان، لكن الإجابة تكمن في ما استدل به الباحث من اهتمام عالٍ بالنظافة العامة التي فاقت موضوع الطهارة الإسلامية، والحفاظ على سلامية البيئة من خلال سن قوانين صارمة

[1]- أبو الحسن الصغير "الذر النثر على أجوبة أبي الحسن الصغير المعروف بنوازل ابن هلال" طبعة حجرية، د.ت، ص 411.

[2] - ريكاردو كوردوبا دي لا لاف: الصناعات المتوسطية، ص 248.

[3]- ابن مرزوق: أجوبة العلماء في نوازل من أبواب الفقه، مخطوط. الخزانة العامة، الرباط، رقم 134د. ورقة 86.

[4] - محمد فتحة : الأحكام والنوازل والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من ق.6-9هـ/ 12-15م، كلية الآداب عين الشق الدار البيضاء، مرقونة، 1995، ج1، ص 295-296.

فرضت من قبل المعنيين بالأمر، وما صاحبها من مشاريع إنمائية تخص إيصال المياه إلى المدن والقرى والمداشر، عبر أنابيب خاصة، ينبئ بوجوب التخلص من الفضلات.

فالنوازل الفقهية أشارت إلى وجود المراحيض في الدور [1]، كما تؤكد المصادر [2]، وجود عمال من العبيد عرفوا باسم الكنافين كانت مهنتهم إخراج الغائط من الدور.

ويذكر ليون الأفريقي الإفريقي [3]، أثناء مشاهدته مدينة فاس وجود مجارٍ معدة لتصريف المياه في "بالوعات صغيرة"، ووجود ماء يصل إلى المراحيض ويتم صرفها "إلى النهر".

وتذكر بعض المصادر أن المهندسين عملوا بمساعدة القنونين[4] القوادسية على تزويد تلك المدن بقنوات الماء الصالح للشرب[5] وأخرى لتصريف الدورة المائية [6] فقد أقاموا أقاموا قواديس من رصاص وأوصلوها بالمساجد والقيساريات والأسواق[7].

---

[1]- الونشريسي: المعيار، ج6، ص72.

[2] - ذكرت آنفاً.

[3] - ليون الأفريقي: وصف إفريقيا: ج1، ص223.

[4]- تم جلب الماء لداخل مدينة سلا ولجامعها الأعظم من الموقع المعروف بمرج حمام وهو على مسافة أميال من المدينة. انظر، ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن ، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1401هـ / 1981م ، ص 471.

- ليون الأفريقي: وصف إفريقيا، ج1، ص 202-226.

- فاطمة العيساوي: "نموذج لعلاقة المخزن بالحرفيين خلال ق 19"، مجلة أمل، العدد 7، السنة الثالثة، 1996م، ص38.

[5]- ابن مرزوق: المسند، ص 417، الونشريسي: المعيار، ج 6، ص 62.

[6]- ابن مرزوق، المسند، ص 223.

- محمد المنوني: حضارة بني مرين من خلال منشآتهم المعمارية من تمتين الدولة إلى المخاطر 664-1076هـ، مذكرات من التراث المغربي، مجموعة يشرف عليها العربي الصقلي، الطبع والتجليد، بيروت، 1984م، ص16-17.

[7]- الجزنائي، زهرة الآس، ص 72-74. - روجي لوطورنو: فاس في عصر بني مرين، تر: نقولا زيادة، مكتبة لبنان، بيروت، 1967م، ج 1، ص 3433.

ويقول المستشرق جوزيف كيب واصفاً حال المغرب والأندلس خلال ق 8هـ/14م" فاعلم أن أمهات المدن الأوروبية لم توجد فيها قنوات لتصريف المياه القذرة حتى ذلك التاريخ فكانت المياه النتنة النجسة تجري في طول شوارع باريس ولندن غير المبلطة أو تتجمع فيتكون منها حياض... أما في مدن المغربين فكانت الشوارع مبلطة منورة قد سويت فيها مجاري المياه أحسن تسوية... بعض القنوات التي كانت تحت الشوارع لصرف المياه القذرة في بلنسية تقدر أن تتسع سيارة... وهذا النظام الصحي السامي كانت عضده النظافة العامة" [1].

ويصف حال أهل أوروبة قائلاً: "لم يكن لأحد منهم في جيبه منديل" [2]. كما عرف المغربان نظام اتقاء النكبات فاستخدموا البطالين في إصلاح الطرق والأشغال العامة [3].

د . فلتات فردية:

ألمحت المصادر التاريخية إلى وجود فلتات اجتماعية ظهرت من البعض ساهمت بشكل أو بآخر في إحداث ضرر على الصحة العامة لأفراد المجتمع، وربما كان الإهمال بغير قصد، نتيجة عدم المعرفة، ومن ذلك إلقاء الأوساخ في الطرق العامة [4].

كما أشارت إحدى نوازل القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، أن بعضاً من أهالي مدينة القيروان كانوا يرمون الطين والأوساخ في الآبار فيحدثون بذلك ضرراً ينعكس على صحة المجتمع، وبالمقابل أدت بعض التصرفات الفردية وذلك لتحقيق مصالح شخصية بإلحاق أذى بالعدد الأكبر من الناس، ومثال ذلك قيام بعض أصحاب الحوانيت بتغطية مجرى مياه في أحد

[1] - جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين في إسبانيا، ترجمة: محمد تقي الدين الهلالي، مكتبة المعارف، الرباط، ط2، 1985م، ص40.
[2] - جوزيف كيب: مدنية المسلمين ص53
[3] - جوزيف كيب: مدنية المسلمين، ص 53.
[4] - الونشريسي: ج9، ص36

الأزقة كونه يشكل حائلاً بين حوانيتهم والشارع العام حتى أصبح المجرى سبخة لتجمع الأوساخ [1]. ومعلوم مدى الخطر الصحي الذي تشكله السبخات.

كذلك فقد نبهت النوازل [2]، إلى قيام بعض المصلين من العوام بالتردد على خزانات مياه الجامع، مما يساهم في نقل العدوى من الشخص المريض إلى السليم.

ذهبت المصادر إلى أبعد من ذلك حين أشارت وبصراحة إلى ما يعرف اليوم بالتلوث السمعي الذي يؤذي السمع، ويثير الأعصاب ويقلق الراحة والسكينة. فقد ذكرت إحدى نوازل العصر الوسيط [3]، حول قيام بعض الجيران بضرب النوى وتسويته لأجل تخزينه للبهائم وهو ما يضر بالجيران نتيجة الأصوات التي تصدر عن الضرب، ووجود طواحين داخل البيوت [4]، ما كان يسبب ضرر على أسماع الجيران .

واستخدام المزمار "أبي قرون" والضرب، وهو ما أشار إليه ابن غازي[5]، بأثره السلبي في الناس، جراء الأصوات المؤذية للسمع واضطراب للأعصاب على حد سواء. وبالمقابل أشارت بعض النوازل الأندلسية خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي [6]،إلى شكوى الناس من حفلات اللهو والطرب وما يصاحبها من إزعاج صوتي أثناء الضرب بالدّف والكَبَر.

وبالمقابل ساهم بعض العمال في إحداث أضرار صحية على السلامة العامة مثل الكنافين (وهؤلاء كانوا يقومون بنقل قازورات المراحيض) الذين كانوا

[1] - الونشريسي: ج9، ص61

[2] - الونشريسي: ج8، ص440.

[3] - الونشريسي: ج8، ص445.

[4] - الونشريسي: المعيار، ج9، ص59.

[5] - ابن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، الرباط، 1988م، ص 34.

[6] - الونشريسي: ج6، ص 417

يرمون الكنف أحياناً داخل المدينة [1]. والجزارين الذين كانوا يحملون البهائم بعد ذبحها على أكتافهم فتتسخ ثياب المارة من دمائها، فضلاً عن رمي دماء وكروش البهائم داخل السوق [2]. ومعلوم ما تساهم به تلك الأمور من تفشي للأمراض وانتشار للروائح الكريهة، وإحداث ضرر على المرافق العامة التي تنعكس على البيئة الصحية.

وبمنحى آخر يذكر ليون الأفريقي [3]، ما يسمى اليوم بالتلوث الشمي، ومن ذلك أن أنواع من النباتات مجهولة لدى بعض السكان ومنها الدَّاد وهو نبات يستخدم للتبخر ولكنه سام يسبب الأذى

خاتمة:

رغم صعوبة الموضوع؛ لشح المادة المصدرية التي تعالج مثل هذه الظواهر، إلا أن القراءات الأولية واستنباطها من بطون المصادر قد أسعفت الباحث قدر الإمكان في وضع الخطوط الأولى لمظاهر التلوث وأسبابها في الغرب الإسلامي، وتأثير ذلك في البيئة الاجتماعية المدنية، والدينية، وتبيان الأثر السلبي لمخلفات الأوبئة والأمراض، ودورها في نقل العدوى.

كما أوضح البحث دور الجوائح والتقلبات المناخية المصاحبة للرياح والبراكين والزلازل، وأثرها الواضح في تلوث الهواء مما يؤثر تأثيراً شديداً في البيئة والصحة العامة، فضلاً عن ذكر المورفولوجيا للمدينة الإسلامية، جراء الأبنية المتلاصقة مما يحرم أصحابها من ضوء الشمس، و دخول الهواء، فيتشر العفن، الذي يسبب التلوث والأمراض.

[1] - ابن عبدون: رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة، ضمن ثلاث رسائل فى آداب الحسبة والمحتسب، نشر ليفى بروفنسال، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، 1955م، ص 37.

[2] - ابن عبدون: ثلاث رسائل، ص 44.

[3] - ليون الأفريقي: وصف إفريقيا، ج2، ص284.

و تشي النصوص التاريخية المذكورة بمحاكاة لحالة اجتماعية كانت تدور رحاها ضمن المجتمع، المدروس، انعكست سلباً على أفراد المجتمع؛ فلم تعد تعير بالاً للدِّين، أو الأعراف الأخلاقية، في وقت انهمك فيه بعضهم وراء مصالحه الشخصية، ومنافعه المادية، كالأعمال المهنية في البيوت والتي تتسبب بأصوات مزعجة؛ وبناء الأبنية الملاصقة للجيران مما يحجب ضوء الشمس. ويبدو أن الدافع الرئيسي وراء هذه الظواهر المشينة؛ الانسياق وراء المصالح الشخصية. بغض النظر عن الضرر الحاصل. بحيث أنها كانت سبباً في خروج بعضهم عن الأخلاق الدينية.

ناهيك عن تنبه الفقهاء خلال الحقبة المدروسة للإزعاجات التي تؤرق وتؤذي المجتمع كالتلوث السمعي، والبصري، ومايصاحب الحملات العسكرية من إلحاق أذى بيئي، كقطع الأشجار وحرقها الأمر الذي يسبب كارثة للبيئة جرّاء نقص الحزام الأخضر، و الانبعاثات الغازية نتيجة الدخان المحروق، فينعكس ذلك على الصالح العام.

المصادر والمراجع:

المخطوطات:

- ابن حيان(أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان ت 469 هـ/1090م): كتاب في أنساب المغرب، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم (45) بعثة المغرب الأولي إلي الرباط.
- مؤلف مجهول (عاش في العصر الوطاسي) : نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، مخطوط، ضمن مجموع، الخزانة العامة الرباط، رقم (2152 د) .
- مؤلف مجهول: كتاب في الجغرافيا، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، تحت رقم (46) بعثة المعهد الاولي إلي الرباط.

المصادر:

- ابن الأحمر(أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي ت 810هـ/ 1432م): بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1979م .
- ابن بطوطة (محمد بن عبدا لله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى ت 779هـ/ 1401م): رحلة ابن بطوطة، تحقيق طلال حرب، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.
- ابن حيون المغربي (القاضى أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور، ت363هـ/ 985م): المجالس والمسايرات، تحقيق: مجموعة، اشراف: محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، ط2، 1997م.

– ابن خلدون (ولي الدين عبدالرحمن بن محمد ت 808هـ/ 1406م) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المقدمة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط3، 1427هـ 2006م.

– ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط 1972م.

– ابن أبي زرع (الحسن علي بن عبد الله توفي حوالي سنة 741 هـ/1315م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1973م.

– ابن أبى زيد القيرواني (أبو محمد عبد الله، ت 386هـ/ 1008م): النوادر والزيادات علي ما في المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق محمد عبد العزيز الدباغ، ط1، دار الغرب الاسلامي،1999م.

– ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي ت 627 هـ/1230م): التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب الرباط ، طبعة البيضاء، 1984م.

– ابن سينا (الحسين بن علي بن سينا أبو علي ت 427هـ/ 1037م): القانون في الطب، تحقيق وشرح: حسان جعفر، دار ومكتبة هلال، القاهرة، 1986م.

– ابن عبدون (محمد بن احمد بن عبدون التجيبى ت659هـ/ 1135م): رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة، ضمن ثلاث رسائل فى آداب الحسبة والمحتسب، نشر ليفى بروفنسال، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955م.

– ابن عذارى (أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشى ت712 هـ/ 1295م): كتاب البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب البيان المغرب، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م.

– ابن عذارى: البيان، قسم الموحدين ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ، محمد زنيبر ، محمد بن تاديت ، عبد القادر زمامة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط1،1406 هـ / 1985 م م.

– ابن غازي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد العثماني المكناسي ت 919هـ/ 1513م): الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، الرباط، 1988م.

– ابن القطان (أبو علي حسن بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي ت 628 هـ/1167م) : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، نشره محمود علي مكي، طبعة تطوان، المطبعة المهدية ، 1920م.

– ابن مرزوق (ت 842هـ/ 1340م):أجوبة العلماء في نوازل من أبواب الفقه، مخطوط. الخزانة العامة، الرباط، رقم 134د.

– ابن مرزوق(محمد بن أحمد بن محمد العجيسي ت842هـ/ 1341م): المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن ، دراسة وتحقيق، ماریاخیسوس بیغیرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1401هـ / 1981م .

– أبو الحسن الصغير "الذر النثر على أجوبة أبي الحسن الصغير المعروف بنوازل ابن هلال" طبعة حجرية، د.ت.

– أبو العباس (أحمد بن خالد السلاوي ت 1315 هـ/ 1897م): كتاب الاستقصاء لاخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، طبعة البيضاء، دار الكتاب، 1954م.

– البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي ت حوالي 555هـ/ 1165م): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة، طبعة الرباط 1971م.

– الجزنائي (أبو الحسن علي توفي ق 8هـ/14م): جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1967م.

– الحميري: (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي ت 900هـ/ 1459) : الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان ،طبعة بيروت، ط 2، 1984 م.

– مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد، مطبعة جامعة الاسكندرية، مصر، 1985م.

– مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، اعتنى بنشره وتحقيقه يـ . س. علوش ، المطبعة الاقتصادية ، رباط الفتح ، 1936م.

– ليون الأفريقي (محمد بن الحسن ت حوالي 957هـ/ 1554م): وصف افريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 1 ، الرباط 1980م.

– الونشريسي(أبو العباس أحمد بن يحيى ت 914هـ/ 1509م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1981م.

المراجع العربية والمعرّبة

- جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين في إسبانيا، ترجمة: محمد تقي الدين الهلالي، مكتبة المعارف، الرباط، ط2، 1985م.

- حسن علي حسن: الحضارة الاسلامية في المغرب والأندلس: عصر المرابطين والموحدين ،مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980م .

- ديفيد دويتش: بداية اللانهاية، ترجمة دينا أحمد مصطفى، مراجعة، مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي، مصر، د1، 2016م.

- روجي لوطورنو: فاس في عصر بني مرين، ترجمة نقولا زيادة، مكتبة لبنان، بيروت، 1967م.

- ريكاردو كوردوبا دي لا لاف: الصناعات المتوسطية في القرن الرابع عشر، ترجمة: إسحاق عبيد،ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، تقديم إسماعيل سراج الدين و آخرون، مكتبة الاسكندرية، 2007م.

- عبدالهادي التازي: آفة الجراد ظاهرة التعاون في التاريخ الدولي للمغرب، الرباط مطبوعات المملكة المغربية، 1989م.

- فاطمة العيساوي: "نموذج لعلاقة المخزن بالحرفيين خلال ق 19"، مجلة أمل، العدد 7، السنة الثالثة، 1996م.

- محمد الأمين البزاز: حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، العدد 18، 1994م.

- محمد الحبيب الخوجة الجراد بين الدراسات الحديثة وبين التصورات الموروثة، الرباط، مطبوعات المملكة المغربية، 1989م.

- محمد فتحة : الأحكام والنوازل والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من ق.6-9هـ/ 12-15م، كلية الآداب عين الشق الدار البيضاء، 1995م (مرقونة).

– محمد المنوني: حضارة بني مرين من خلال منشآتهم المعمارية من تمتين الدولة إلى المخاطر 664–1076هـ، مذكرات من التراث المغربي، مجموعة يشرف عليها العربي الصقلي، الطبع والتجليد، بيروت، 1984م

– محمود اسماعيل عبد الرازق: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، طور الانهيار، دار سنا للنشر، القاهرة ط 1 ، 1992م.

– هاشم العلوي: مجتمع المغرب الأقصى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1990م.

الرسائل الجامعية:

– مصطفى نشاط: التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول 668–759هـ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق الدار البيضاء، السنة الجامعية 1988–1989م.

مولاي حسن مغار: الحرف والحرفيون بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني، رسالة دكتوراه، مرقونة، جامعة مولاي اسماعيل، مكناس، 2009م.

المجلات العربية:

– لطف الله قاري ينبع: التلوث الهوائي قديماً وحديثاً، مجلة الفيصل، العدد 187، الكويت، يوليو 1992م.

– فاطمة العيساوي: "نموذج لعلاقة المخزن بالحرفيين خلال ق 19"، مجلة أمل، العدد 7، السنة الثالثة، 1996م،

المراجع الأجنبية: References

Lewis (Benrard): Race and Color in islam,NewYork,Haroer&Roe, 1971.

- Manzo, Ousman & Hassidou, Saidou & Ozer, Pierre & Maimouna, Mahaman, (2015). Effets de la modernization de tannerie sur l'impact de ses activité sur la qualité des eaux: cas de la tannerie de Maradi au Niger. International Journal Of Engineering And Science.

التدابير البيئية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط

الدكتور: بسام العلوش
كلية الآداب – جامعة البعث

ملخص البحث

يسعى البحث إلى دراسة الإجراءات العلاجية والوقائية في الغرب الإسلامي سواء على المستويات الرسمية، أو الدينية، أو الشعبية (التعاونيات)، الهادفة للحد من ظاهرة التلوث بأنواعه وأشكاله المختلفة، وتبيان الآثار الناجمة عن استفحال هذه الظاهرة في حال عدم الاكتراث بها، وضررها في الإنسان، والبيئة الطبيعية، على حد السواء، فضلاً عن إبراز دور العامل الاسلامي في فهم البيئة السليمة صحياً، وضرورة أن يتعاطى الإنسان مع نظافة البيئة والحفاظ عليها كونها أساس استمرارية الحياة.

Abstract

The research seeks to study the remedial and preventive measures, whether at the official, religious, or popular levels (cooperatives), aimed at reducing the phenomenon of pollution in its various forms and forms, and to show the effects resulting from the exacerbation of this phenomenon in the event of indifference to it, and its harm to humans and the natural environment, Equally, as well as highlighting the role of the Islamic factor in understanding a healthy environment, and the need for humans to deal with the cleanliness of the environment and its preservation as the basis for the continuity of life.

أهمية البحث:

تبيان مدى أهمية العلاقة بين الدولة والمجتمع لإيجاد برنامج تكافلي يضمن الاستمرارية للصالح العام في ظل وجود الأزمات البشرية، والكوارث الطبيعية، في العصر الوسيط والتركيز على المخزون الثقافي لإنسان المغرب والأندلس من خلال رصد أثر الموروث الديني، في بلورة ذهنيات وتمثلات ذات مناحٍ وتأويلات عديدة.

إشكالية البحث:

رغم ضعف الإمكانيات الماديةوالعلمية والثقافية، بالمقارنة مع العصر الوسيط الذي نعيشه اليوم، يمكن طرح إشكالية البحث من خلال عدد من الأسئلة:

كيف أدرك إنسان العصور الوسطى ، ظاهرة التلوث وتأثيراتها، رغم ضعف الإمكانيات العلمية، والتقنية، قياساً مع العصر الحالي؟

هل كانت السلطة الحاكمة في العصور الوسطى على قدر من المسؤولية لتوفير بيئة ملائمة لحياة الناس و حمايتهم من التلوث بمختلف أشكاله؟

ما دور السلطة الدينية في الحد من ظاهرة التلوث و تأمين مجتمع آمن من كل ما هو مؤذي لصحة الإنسان؟

ويحسب الباحث أن السؤال المثار ذو طبيعة مركبة، فهو يروم إعادة التفكير في مسؤولية الدور الثنائي بين السلطة الحاكمة، وأفراد المجتمع، وتفاعل المجتمع مع بعضه ، وعدم بقائه في مقعد المتفرّج أو المراقب عن بعد، دون تقديم أدنى مساهمة في الحفاظ على الصحة البيئية، خاصة أوقات الجوائح.

منهج البحث:

تم الاعتماد على المنهج الوصفي و الاستقرائي، ومن ثم تحليل الرؤى السوسيولوجية والدينية، كذلك الاعتماد على التحليل النفسي، لإنسان المغرب

والأندلس مدار الحقبة المدروسة، لتبيان دور الضغوط الطبيعية، والممارسات البشرية، في السلوك والذهنية، طريقة تعاملها مع ظاهرة التلوث.

كلمات مفتاحية:

التلوث، البيئة، الضجيج، الهواء، العدوى، الحلول الرسمية، الحلول الدينية، الحلول الشعبية، التعاونيات.

مقدمة:

تعاقبت الأزمات والمحن التي عصفت بالبشرية عبر تاريخها الطويل، ونزلت بالناس صنوف شتى من الابتلاءات، والنكبات، والمخاطر، كالمجاعات والحروب، والكوارث الطبيعية، ولعل أخطرها التلوث البيئي، إذ يشكل بأنواعه وأشكاله المختلفة[1] إحدى إرهاصات الحياة اليومية، نظراً للضرر الحاصل في البيئة العامة والحياة الإنسانية، نتيجة إفرازات الثورة الصناعية والكيماوية جراء الانتشار اللامعقول للمعامل والمصانع، وما يرافقها من انتشار للسموم الكيماوية ما يحدث دماراً في البيئة وضرراً للإنسان.

فلا غرابة إذا ما لوحظ اهتمام عالٍ من قبل المتخصصين خلال العقدين الأخيرين بقضايا البيئة ومشكلاتها، وبخاصة بعد أن أخذت بالنضوب والاستنزاف، وباتت التربة، والهواء، والماء، والمواد الغذائية، ملوثة بأنواع شتى من الغازات والسموم، ما أسهم في تفشي الأمراض، وزيادتها.

ولما كان علم التاريخ يعد أحد الميكانيزمات المهمة لاستجلاء الماضي، ومن ثم دراسة المستقبل، وانطلاقاً من دور المؤرخ في تنوير الرأي العام، والاستفادة من التجارب التي مرّت بها المجتمعات السالفة، واهتمام بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الأحداث بتقديم صور متنوعة عن تلك الكوارث والنكبات البيئية، كشواهد مكتوبة.

وقد أدت الطبيعة دوراً مهماً في حياة مجتمع الغرب الإسلامي كغيره من المجتمعات، فعاش في رهان مع الطبيعة ، بين الشح والعطاء ، حيث يأتي

[1] - تلوث الهواء، التلوث الضوضائي، التلوث البصري، الأمراض والعدوى...الخ.

المطر في بعض السنوات مبكراً ومفاجئاً على غير ميعاده ، وهذا الخلل يعني امتثال الإنتاج الاقتصادي وفقاً لمعدلات الهطولات المطرية، واستطاع أن يؤثر في البنية الاقتصادية ومصالح الناس .

ورافق هذا الخلل المطري، حدوث الزلازل، والأمراض والأوبئة [1]، وانتشار الجراد، مما أدى إلى حدوث مجاعات ذهب ضحيتها آلاف الناس .

أضف إلى ذلك أنه جرّاء هذه الاكتساحات الطبيعية التي تعرضت لها مناطق دون أخرى ؛ كان الناس يجبرون على هجر مدنهم ومزارعهم ، ملتجئين إلى مناطق أخرى أكثر أمناً ، مما يشكل فقراً اقتصادياً نتيجة هجر المزارع ، وضغطاً اجتماعياً واقتصادياً، على المدن المنزوح إليها، بسبب النمو الديموغرافي المفاجئ، وارتفاع نسبة البطالة، فأدى ذلك إلى مشكلة الركود التضخمي، وعلى المستوى الاجتماعي خسارة عدد كبير من المهن والصنائع داخل المدن، لهلاك عدد كبير من الصناع والحرفيين .

كما أدى القحط والجفاف إلى انخفاض في مستوى المياه الجوفية، والتقليل من جريان المياه السطحية ، وهذه تؤثر بشكل مباشر في مستوى استثمار المياه ، فالأماكن التي يعتمد سكانها على الآبار نتيجة لاستغلالهم المياه الجوفية ، يصبح استغلالها لديهم ضعيفاً وذلك لانخفاض منسوب المياه وبالتالي تجف الآبار، وكذا المياه السطحية، فانعدام الجريان أو انخفاض سرعة الانحدار، يؤدي بطبيعة الحال إلى ضعف في استخدام الأرض والنواعير والسقايات، خاصة مع اعتماد النشاط السكاني على هكذا موارد نظراً لانعدام أو قلة المشاريع المائية الضخمة التي تشرف عليها الدولة، ويبدو أن سنوات القحط كانت شديدة لدرجة تأثيرها في بنية الدولة، وهيكلية المجتمع [2].

[1]- ابن هيدرو: ماهية المرض الوبائي وتسمى أيضا الخطبة المكية في الأمراض الوقائية، مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم(9605) ، ورقة 2 .

[2]- الناصري: الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، إعداد، محمد المغراوي، منشورات وزارة الثقافة ، المغرب ، ط3، 2005م ، ج4، القسم1، ص 88.

تعرضت بلاد الغرب الإسلامي كغيرها من بلدان العالم للعديد من الكوارث والجوائح ، الطبيعية والبشرية، من حقبة لأخرى، حيث شكلت خطراً هدد سقوط الدول، وأثر في استمرارية الوجود البشري ، مما أثر في سلوك الدولة، وذهنية المجتمع.

من الثابت أن الحروب والفتن والثورات، تؤثر تأثيراً بالغاً في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، كما أن اضطراب حالة أمن الدولة خصوصاً في أوقات ضعف سلطتها ، يؤدي غالباً إلى قلة الأقوات، واضطراب الحياة وزعزعة الاقتصاد، وانتشار حوادث السرقة والنهب والقتل والمشاجرات الدامية [1] .

كان للصراع الدائر بين القوى المتناحرة، دور بارز في إحداث الخراب والدما، إضافة إلى وجود حركات التمرد، علاوة على الغزوات الخارجية، وما صاحبها من شلل للحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فقد وصف ابن خلدون دخول – بني هلال – أفريقية سنة (443هـ/1051م) " كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه " [2]. الأمر الذي أثر بشكل كبير في الخراب البيئي في الغرب الإسلامي.

وبما أن البيئة الطبيعية جزء من هذا الكون، وكون أن الإسلام حثّ في نظمه الشرائعية على الاهتمام بكل مكنونات الطبيعة، للحفاظ عليها وفق ما يقتضيه العقل والمنطق، ولما كانت يد البشر لها دور في تلويثها وتخريبها، لذا فقد أولت الحكومات مرحلة الدراسة وخاصة في أوقات الرخاء مجهوداتها العالية في سبيل حماية البيئة والحفاظ عليها كونها سرّ وجود البشر، وتخريبها ينعكس سلباً على صحة الإنسان، وما تلك الشواهد التاريخية المكتوبة إلا دليل على

---

[1]- كمال السيد أبو مصطفى: محاضرات في تاريخ الغرب الإسلامي وحضارته المغرب والأندلس ، مركز الاسكندرية ، الأزرايطة ، 2007 م ، ص 342.

[2] - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط3 ،1427هـ/2006م ، ج6، ص18 . حول آثار الغزوة الاقتصادية ، انظر، : Brett,(M) Ifriqia as amarket for Saharan rtade from the tenth to twelth century A.D. journal of Africa history , vol.x(1960) p.346-347 .

وجود تدابير من أعلى المستويات الرسمية والدينية للحد من هذه الظاهرة المدمرة للحياة البيئية.

لا يستطيع الدّارس أن ينسى بهذا الشأن أن الدين الإسلامي حمل ثقافة جديدة مختلفة عما كان سائداً عند الحضارات السابقة، حيث إن الطهارة و النظافة كانت من صلب العقيدة الإسلامية؛ هذا ما أجبر السلطات الحاكمة والمعنيين بالأمر على التفكير جدياً بمعالجة متطلبات حماية البيئة والاعتناء بالنظافة، وفق منطوق البيئة الإسلامية. بالتالي فإن الاهتمام بنظافة السوق وبناء المشافي وايجاد علاجات وأدوية فعالة للمرض وعدم انتشار العدوى بين الناس فضلا عن الاهتمام بالبيئة، عن طريق تشجيع حركة الإعمار الصحية، والتشجير (الحزام الأخضر) وايصال المياه الذي يعد عنوان النظافة ،وشريان الحياة لكل مدينة وقرية ومنزل أصبحت من المهمات الملقاة على عاتق الحكام.

أولًا– مكانة البيئة والصحة العامة ضمن النص الديني الإسلامي.

جاء الدين الإسلامي عملية ناظمة لعلاقة الإنسان مع الخالق، كذلك الأمر لعلاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، إضافة لعلاقة الإنسان مع محيطه و مجتمعه الذي يعيش فيه، بالتالي لا غرابة أن نجد ضمن النص القرآني والحديث النبوي الشريف بعض النصوص التي تؤكد المنحى الصحي والبيئي للإنسان.

إن المتتبع للنصوص الشرعية (القرآن، السنة) إضافة إلى كتب الفقه، والتاريخ، يلحظ وبجدارة مدى الاهتمام العالي للشريعة الإسلامية بالنظافة، والحث عليها، وجعلها واجباً على كل فرد من أفراد المجتمع، لما ينطوي على ذلك من صحة وضرر على البشرية جمعاء. لقد أكدت النصوص الشرعية النظافة العامة سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى البيئة، وما تلك النصوص العالية الدقة، إلا لفتح مسارب للتفكير في علاج مشاكل التلوث التي أصابت البشرية، وتقديم علاجات ناجعة لحل مشاكل الأوبئة وتلوث البيئة

باعتبارهما متلازمتين. وسنستعرض مجموعة من النصوص الشرعية التي أوجبت نظافة الصحة، والبيئة.

حث القرآن الكريم في كثير من المواضع [1]، على استخدام المياه في الطهور، والوضوء، والعناية بأناقة الثياب ونظافتها فضلاً عن التطيب بالروائح الجميلة، والاعتناء بالمظهر العام، كما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم، "من كان له شعر فليكرمه" [2]. فالوضوء بالماء خمس مرات في اليوم، والمحافظة على النظافة العامة كفيل بصحة سليمة، حتى أن بعض المستشرقين الفرنسيين في القرن السابع عشر استنتج أن الصحة الجيدة التي يتمتع بها المسلمون جاءت من حفاظهم على صحتهم الجسدية إذ يترددون إلى الحمامات مرتين في الأسبوع على الاقل و هذه النظافة نابعة من صميم العقيدة الإسلامية.

كما أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بالاعتناء بالصحة الجسدية، وهو ما يؤكده حديثه: "إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره فليَنفض بها فراشه ويسم الله فإنه لا يعلم ما خلفه بعده على فراشه" [3]. وقد ثبت بالدليل العلمي اليوم أن حشرة تنام مع الإنسان كل ليلة وتعيش في الفرش والبطانيات، وأكد العلم أن هذه الحشرة لا تموت بالغسيل، وإنما بنفضها ثلاث مرات، بطبيعة الحال لا ندعي أن المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت قد وصل إلى تلك الدرجة من التحليل والاستنتاج العلمي، لكن ذلك لا يمنع من القول بحرص الإسلام العالي الدقة بالنظافة العامة.

وتشي النصوص الشرعية بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام قد ذهب بفكره إلى أبعد من ذلك، حين حثّ على العناية بالبيئة العامة، فجعل إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان، وإماطة الأذى تشمل كثيراً من الأمور منها عدم رمي الأوساخ في الطرق، بل الأفضل إزاحتها ووضع أماكن مخصصة

[1] - سورة المائدة: آية (6)، سورة المدثر: آية (1-6)، سورة الأعراف: آية (31).
[2] - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، إعداد: عبدالفتاح حسن عبدالله، دار الكتب العلمية، بيروت، 1372هـ ، ص 381.
[3] - البخاري : صحيح البخاري، مكتبة الإيمان، المدينة المنور،ط2، 1405 هـ، ص 6320.

لها. وهذا نص صريح بالعناية بالبيئة، كما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ترك النار مشتعلة في الليل[1]، وهذا ما يثبت بالدليل العلمي أن في تركها مفسدة للهواء وضرر بالصحة البشرية [2].

كما نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن دخول أرض علم فيها الطاعون "إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض فيها فلا تخرجوا منها" [3]. ولعل هذا أول إشارة إلى أسلوب الحجر الصحي الذي طبقته كبار الدول في ظل تفشي وباء كورونا للحد من انتشاره، ودليل وعي الإسلام بالصحة العامة؛ وإن لم يكن في ذلك الوقت نفس الإدراك الحالي من حيث المعرفة والتقدم العلمي، ولكن كان يكفي القول بتجنبه للوقاية منه [4].

كرّس الإسلام كل الوسائل في سبيل المحافظة على البيئة لذلك حث على التشجير والبستنة لما فيها خير لسلامة البيئة، و بما تعطيه من منظر جمالي، وباعتبار أن الرسول صلى الله عليه وسلم قائد الدولة الإسلامية الأولى أكد ذلك، بقوله: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل" [5].

وهذه دعوة صريحة لزيادة المساحات الخضراء لما فيها من فائدة على الإنسان و الحيوان إلى حد سواء.

[1] - البخاري: صحيح البخاري، ص5935.
[2] - عبدالرحمن جبرة: الإسلام والبيئة، دار السلام، القاهرة، 2000م، ص97.
[3] - البخاري: صحيح البخاري، ص5396.
[4] - تحدث الفيلسوف الغزالي المعروف بـ "حجة الإسلام" بما يثير الانتباه والدهشة عن فترة حضانة الفيروس الذي يكون منتشراً في الوباء، وكيف أنه يحتاج وقتاً حتى يظهر أثر المرض على المصاب، وبالتالي يكون الخطر ومنع الخروج هو الأسلم في حصار الوباء داخل منطقة محدودة مشيرا إلى ذلك بقوله: "الهواء لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق فيصل إلى القلب والرئة، فيؤثر في الباطن ولا يظهر على الظاهر إلا بعد التأثير في الباطن، فالخارج من البلد الذي يقع به ولا يخلص غالباً مما استحكم به". الغزالي: الوسيط في المذاهب، تحقيق: أحمد محمود ابراهيم، دار السلام، القاهرة، ط1، 1417هـ، ج4، ص220
[5] - البخاري: صحيح البخاري، ص 2195.

إن الدعوة اليوم في عصرنا الحالي إلى زيادة المساحات الخضراء مستندة إلى أسس علمية ربما كانت في السابق مستندة إلى أسس فطرية، لكن بالعموم الهدف واحد الحفاظ على الغطاء النباتي لحياة بشرية سليمة.

ثانياً– العمارة البيئية للمدينة الاسلامية

شكل بناء المدن في العصر الإسلامي أولوية بالغة من أولويات استمرار الدول الحاكمة آنذاك لما لذلك من بعد سياسي واقتصادي، فضلاً عن الاعتناء بها وفق نسق جمالي يريح العين ويسر الناظر والزائر إليها، ونظرا للارتباط الوثيق بين بناء المدن هندسياً واستمراها من الناحية الصحية، سنطرح مجموعة من التساؤلات :

- هل عمل العرب المسلمون خلال الحقبة مدار البحث على إيجاد عناصر الاستقرار المناسبة للعمارة البيئة بما يضمن الصحة العامة للسكان؟
- إلى أيّ حدّ تنبه مهندسو البناء آنذاك إلى موضوع التلوث باعتباره خطر على الصحة والسلامة العامة؟
- كيف روعي الضروري في بناء المدن كالأخذ بالفراغات، وعدم التطاول في البنيان المتلاصقة لبعضها، منعاً لحجب الضوء والهواء حفاظاً على الصحة العامة؟

بداية يجب القول: إن علم التخطيط الهندسي، لم يكن معروفاً بمفاهيمه ونظرياته وتكنولوجياته المعاصرة، وإن أساليب البناء والعمران كانت تختلف عن مثيلاتها الحالية، ومع ذلك فقد ظهرت اتجاهات تخطيطية وعمرانية تمثل قيما ومبادئ ومعايير في التخطيط والعمران، هندسياً وصحياً، كانت وليدة احتياجات معينة، فقد بدأ التحول الصحي في المدينة الإسلامية يأخذ منحنى جديداً منذ أن تغير مركز المدينة، فلم يعد المركز قصر الحاكم مثلما كان عليه الحال في العصور القديمة ، بل أصبح المسجد الجامع الذي بنيت حوله الأسواق وتفرعت

عنه شوارع عديدة؛ وعريضة صارت لعموم الناس كان هدفها تخفيف الازدحام وكسب المزيد من النور [1].

يبدو أن مشكلة اختيار مركز الدّولة قد شغلت بال السلطة الحاكمة ليتم بناؤها وفق بيئة سليمة الهواء – ضمن منطوق العصر المدروس– وهو ما ألمح إليه مؤرخو العصر الوسيط[2]، حين ركزوا على أهمية العامل الجغرافي في بناء المدن، والعواصم [3].

ومن أمثلة ذلك مدينة مراكش عاصمة الدولة المرابطية، إذ تذكر المصادر التاريخية أن بناءها لم يكن عشوائياً وقد روعي أثناء تشييدها أهم عامل وهو طيب الهواء وجودته، حسبما يذكر ابن خلدون [4] ، فقد قام يوسف بن تاشفين سنة 454هـ/ 1062م، بإحضار المهندسين وعمال البناء، لبناء مراكش، حيث قام المهندس الأندلسي عبدالله بن يونس بدراسة طبقات الأرض وجرّ المياه إلى المدينة فسقيت البساتين وازدهرت [5]، الأمر الذي استرعى انتباه الجغرافي الإدريسي فوصفها "وماؤها مستخرج بصنعة هندسية حسنة" [6].

وتابع الموحدون نفس النهج إذ بنى الخليفة عبد المؤمن بن علي، صهريجين كبيرين لتجمع المياه ومنها توزع على أرجاء المدينة [7]؛ ويتابع ليون الافريقي خلال مشاهدته

[1] - أنظر حول ذلك محمد عبدالستارعثمان: المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 18، الكويت، آب 1988، ص 47.

[2] - أمثال ابن الهيثم حيث تَرك أكثر من مائة مؤلف في الطبيعة أنظر حول ذلك، ابن أبي أصبيعة: كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: مولر، القاهرة، 1982م، ج2، ص90.

[3] - وذلك عن طريق دراسات علمية فدرسوا القوانين المائية التي تحكم العيون والينابيع والآبار الارتوازية. أنظر للمزيد، عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو لمصرية، القاهرة، 1963م، ص 364.

[4]- ابن خلدون : العبر ، ص 92.

[5] - ابن سعيد: نزهة الأنظار ، ج1، ص12

[6] - الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1414هـ / 1994م، ص67-68

[7] - مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد ، طبعة البيضاء ، دار النشر المغربية ، 1985م، ص 209-219.

لمدينة مراكش أنه روعي فيها إضافة إلى التصاميم الهندسية ، الهواء النقي وطيب الماء [1]. ما يؤكد أن بناء المدينة الإسلامية لم يكن عشوائياً .

كما ظهر خلال العصر المريني عدد من العلماء منهم ابن البناء العددي (ت 723هـ/1323م) الذي ساهم في دراسة المناخ والكواكب، ومدى تأثير الأرياح في تركيب المناخ [2]، لذلك عندما قام السلطان المريني أبي الحسن ببناء قصره استعان بالعلماء لتوفير طيب الهواء [3].

وفي الجانب الأندلسي اهتم المؤرخون بوصف المناطق ذات الهواء النقي الصالح للعيش حيث يصف ابن الخطيب مدينة وادي آش الأندلسية إن "هواءها عليل طيب، وماؤها وجداولها نقية عذبة" [4]، الأمر الذي ساعد على إقامة المزروعات والعيش الرغيد.

ومن جانب آخر فقد استرعت المناطق الفاسدة الهواء انتباه المؤرخين والجغرافيين، حيث يتحدث ابن الخطيب عن مشاهداته فيصف مدينة مالقة في الأندلس بأن هواءها فاسد لذلك "طعامها لا يقبل الاختزان" [5].

وبالمثل توضح المصادر النوازلية إن موضوع فساد الهواء وطيبه كان حاضراً في أذهان الفقهاء، وما تردد صداها إلا تعبيراُ واضحاُ عن سلامة البيئة، حين تحدثت بصراحة عن الأبنية المتلاصقة ومساوئها لما في ذلك من ضرر يمنع دخول الشمس والهواء [6]، وذلك منعا للعفونة والرطوبة اللتين تؤثران في سلامة البيئة، وبنفس السياق أشارت النوازل إلى منع غرس الأشجار العالية، وعدم التطاول في البنيان المتلاصقة [7]،

[1] - ليون الافريقي: وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 1 ، الرباط 1980، ج1 ص 126-127، 136.

[2] - ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس القسمان الأول والثاني ، طبعة الرباط 1973 ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، ص 77.

[3] - محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس خلال لعصر المريني ، دار القلم، الكويت، ط2، 1987م، ص 321.

[4] - ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق: محمد كمال شبانة ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1423هـ/ 2002م ، ص 112.

[5] - ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص 91.

[6] - الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط،1981م، ج9، ص39

[7] - الونشريسي: المعيار، ج9، ص38، 47

التي يمكن أن تحجب ضوء الشمس ، لما فيه ضرر صحي، وبالتالي فإن موضوع التخطيط العمراني والهندسي بما يتوافق مع سلامة البيئة كان حاضراً في الأذهان.

ويبدو أن فقهاء العصر الوسيط قد ذهبوا أبعد من ذلك حين أشاروا بصراحة إلى موضوع تصريف المياه وخاصة في الدّور المتلاصقة في المجاري المائية لما يلحق ذلك من خطر على البيئة والصحة العامة للبشر، وأكدت نوازل القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد [1]، على ذكر أوصاف الدور من حيث جودة الهواء النقي وصحته، وعدم وجود الرطوبة، وألا تكون ملجأً للحشرات كالذباب والبعوض [2].

بعد طرح ما سبق يمكن القول:

إن صحة وسلامة البيئة كانت حاضرة في أذهان الأوساط الاجتماعية من حكام وأعيان وفقهاء، فعملوا على إصباغ الصفات الحضارية الراقية والجمالية ، سواء على المنشآت الخاصة كالقصور، أو العامة منها كالمساجد والدور والمشافي والفنادق والشوارع، كل ذلك وفق تخطيط هندسي للحفاظ على سلامة البيئة.

ثالثاً- الجهود المبذولة للحد من التلوث البيئي:

إن عملية الحفاظ على الوسط البيئي الذي يعيش فيه أي مجتمع مسؤولية تقع على عاتق عدد من الجهات و ليس بمقدور جهة بمفردها أن تردع ظاهرة التلوث، ومن هنا هل يثبت الواقع المدروس أن الأصل في السلامة الصحية العامة، وجوب التعاضد والتعاون بين السلطة الحاكمة وأفراد المجتمع، وخاصة وقت المحن والأزمات؟

وهل يثبت الواقع المدروس دور رجال الدين كمؤسسة ثقافية واجتماعية تحث وتجبر أفراد المجتمع للامتثال للتعاليم الصحية السليمة كونها من ركائز الاسلام، وتجمع أواصر التعاون والتآلف في المجتمع؟

[1] - الونشريسي: المعيار،ج9، ص 39.
[2] - الونشريسي: المعيار، ج6، ص 50.

يشي الواقع التاريخي إن هذه المسؤولية قد قسمت بنسب متفاوتة على عدد من الجهات سواء حكومية أم شعبية أو حتى دينية، إذ إن عمل أية جهة من هذه الجهات يتكامل ويتعاضد مع البقية بغية العيش في وسط صحي وبيئي سليم.

1- المجهودات الحكومية [1]:

يمكن القول: هل وقفت السلطة الحاكمة مكتوفة الأيدي أمام ما تعرض له المجتمع –مرحلة الدراسة– من ضغوطات وملوثات طبيعية وبشرية، أم أنهم سعوا إلى إبراز الإجراءات القانونية ، ذات الصلة بمعاناة الإنسان، التي تكثر إبان الجوائح والحروب؟

لا تخلو الإشارات المصدرية من التأكيد أن السلطة الحاكمة، لم تدخر جهداً في سبيل إنشاء مشاريع بيئية وبنيوية هدفها خدمة الصالح العام، والمحافظة على نظافة البيئة، كون عامل النظافة البيئية، كان حاضراً دائماً في أذهان المجتمع الإسلامي.

لا ندعي أن السلطة الحاكمة آنذاك كانت تعي مفهوم التلوث والمحافظة على البيئة خضراء بمنطوقها الحالي، ولكنها ربما أدركت إلى حد ما أهمية المشاريع التنموية والبيئية، كونها سبب استمرار السلطة الحاكمة، وربما اهتماهما بالجانب البيئي نابع من التعاليم الإسلامية الحاثة على الغرس والتشجير، وعدم قطع الأشجار. إذ قامت السلطة بعدد من الاجراءات الهادفة بيئياً:

[1] - يهدف الباحث لذكر أمثلة تبين دور السلطة والمعنيين بالأمر بما قدموه من مشاريع للصالح العام على المستوى الصحي والبيئي.

أ- المشاريع المائية

نظراً لما يشكله الماء من عنصر أساس الحياة، وعنوان الحضارة، والنظافة، فقد أعربت السلطة عن اهتمامها بمشاريع الري سواء في البلاد المغربية أو الأندلسية[1]،على حدّ السواء، حيث اعتنوا بالصهاريج والأحواض المائية وأحاطوها بسياج من الأشجار للتقليل من نسبة التبخر [2]؛ كما قام علي بن يوسف بن تاشفين ببناء قنطرة عجيبة متقنة الصنع على نهر تانسيفت [3]، لسقي البساتين والمحافظة على صحة البيئة من الزوال، الأمر الذي يؤكد اهتمام المرابطين بتوسيع المساحات المسقية ، وذلك عن طريق توفير التقنيات، للتخفيف من حدة الجفاف وخطر الفيضانات، كما سعى الأمير المرابطي نفسه ، إلى توظيف خبرات المعاهدين الذين قدموا من الأندلس في مدّ مراكش بالماء [4]، ويصف الإدريسي ذلك " وماؤها الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة " [5].

ورغم أن مدينة سبتة الإسلامية لم يراعَ فيها وجود الماء أثناء بنائها وباعتبار أن الماء العنصر الأساسي لوجود الحضارة وإحياء المدن، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون [6]، ورغم طبيعتها الجغرافية وأحجارها الشستية المانعة لنفاذ

[1]- سامية مصطفى مسعد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط1 ، 2003م ، ص 102 .

[2]- ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني، محمد ابن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ، ص222 .

[3]- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط2، 1984م، ص 540.

[4]- عز الدين عمر موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2، 1424هـ/ 2003م، ص 180 .

[5]- الإدريسي، نزهة المشتاق، ج233/1 .

[6]- ابن خلدون: المقدمة، ص 38.

المياه ، فقد أشار الأنصاري إلى وجود خمس وعشرين سقاية عمومية [1]، ومن جهة ثانية تذكر المصادر [2]، استعمال الشواني أو الشواتي، أو الظهر في عمليات نقل المياه سواء إلى داخل المدينة، أو إلى حماماتها، وكان يجلب إليها من البحر، ومن ثم يصب في المصارف ليتم توزيعها على الصهاريج و الحمامات [3]، فكانت مياه البحر توزع على الحمامات، ومياه الأنهار توزع على المنازل، مما يشي بالتخصص في مجال استخدام المياه والاستفادة منه؛ كما وجدت إشارة إلى نقل الماء عن طريق المراكب البحرية [4]، ولعل ما ذكر يعطينا تصوراً واضحاً عن مدى دور السلطة في إيصال المياه بشتى السبل، وذلك للاعتناء بأساسيات الحياة من صحة ونظافة، كون أغلب الصناعات كانت تعتمد الماء ويتم عن طريقه التخلص من بقايا المصنوعات خشية حدوث التلوث داخل المدينة نتيجة تكدس القمامة [5]، فضلا عن المحافظة على جمال البيئة الزراعية.

وبالمقابل قامت الدولة الموحدية بتوفير المياه ، وذلك عن طريق ابتكار أساليب لم تكن موجودة من قبل [6]، وإحياء الطرق الرومانية القديمة [7]، وتطوير تقنيات استخراج المياه وجلبها من المناطق التي تتوفر عليه إلى المناطق المزروعة[8]، وتكشف المصادر عن جر المياه للمدن، فقد استفادت

[1]- السبتي: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق: عبدالوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط3،1417هـ/1996م، ص40

[2]- ابن حوقل: صورة الارض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م، ص79، ابن عذارى، البيان، ج1، ص525. العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق: مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988م، ص 137-138.

[3]- المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الرباط، 1939م ، ج1، ص39-40.

[4]- السبتي: اختصار، ص 43.

[5]- السبتي: اختصار، ص49-50.

[6]- عز الدين موسى ، النشاط ، ص 181 .

[7]- مجهول : الاستبصار، ص 137-138 .

[8]- محمد المنوني: حضارة الموحدين ، دار طوبقال ، الدار البيضاء ، ط1، 1989، ص 169-170 .

مدينة مكناس فجلبوا لها الماء من عين تاكما على بعد ستة أميال [1]، كما جرّ الخليفة الموحدي عبد المؤمن، الماء لسلا من الرباط بواسطة قنطرة مائية [2]، وفي سنة 545هـ/1150م، أصدر الخليفة الموحدي عبد المؤمن تعليماته بإجراء الماء من غبولة فشق سربا تحت الأرض إلى قصبة المهدية [3]؛ الأمر الذي أدى إلى توفير المياه لشرب الناس ، والخيل وسقي الأرض ، وما يدل على قيمة هذا المشروع أنه تحقق على مسافة تناهز "عشرين ميلا" [4]. وبالمثل جلب الخليفة الموحدي يعقوب المنصور الماء لمدينة آسفي [5] ، من الوادي الأخضر بمدينة تساوت [6]، وذلك عبر قناة غاية في الإتقان من، الرحامنة، ودكالة [7]، ويمتد طولها عشرات الأميال [8].

ونظراً لما عاناه القطاع الزراعي من نقص في الموارد المائية ، فقد انصبت جهود الموحدين على مساعدة الفلاحين المنكوبين ، وذلك لتمكين القطاع السقوي من الاستمرار خلال فترات الجفاف، حيث أقدموا على حفظ المياه في الآبار والصهاريج [9]،

1- ابن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية. الطبعة الثانية، الرباط، 1988م، ص24 .

[2]- ابن غازي: الروض الهتون، ص 24 .

[3]- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الاسلامي، ط3، 1987، ص358 .

[4]- مجهول ، الاستبصار ، ص 140 .

[5]- أسفي: "مرسى في المغرب الأقصى.... وعليها عمارات وبشر من البربر". الحميري: الروض المعطار، ص57.

[6]- تساوت: مدينة عامرة بالمياه، والمحاصيل الزراعية تقع في أرض السودان. الأدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص112.

[7]- دكالة: مدينة تقع بين مدينة مراكش والبحر المحيط. الحميري: الروض المعطار، ص 619.

[8]- الكاوني: آسفي وما إليه قديما وحديثا ، طبعة مصر ، 1953، ص 172 .
حول الآثار المتبقية لهذه القناة أنظر . Allain(ch); Reconnaissances archeologiques dans le massif des Rehamn Bahira et la dans Hesp,1954.vol.11.P155-182.

[9] - مجهول: الاستبصار ، ص 140 .

وكان أضخمها صهريج المنارة [1]، كما شيد يوسف بن عبد المؤمن بن علي، عددا آخر في مدينة الرباط [2].

ونتيجة لما سببته الهجرات الريفية من تدهور بيئي، جراء هجرة الأراضي الزراعية، وانحسار المساحات المزروعة التي تسبب خللاً في البيئة ، فقد فطن الموحدون إلى ذلك ، وعملوا على تشجيع الفلاحين للبقاء في أراضيهم ، إذ أمر الخليفة عبد المؤمن سكان القرى بالرجوع إلى مزارعهم قصد فلاحتها ، كما ونهيت الجيوش الموحدية عن تجنب الأراضي المزروعة أثناء تحركاتهم [3].

اهتمت الدولة المرينية بتنظيم المياه وتزويد المدن بها، وذلك عن طريق حفر الأودية، ومدّ الأنابيب، فكان لمكناس شبكة مياه طبيعية كالعيون والأودية التي جلبت مياهها من طرق القنوات على مسافة خمسة كيلو مترات من المدينة فتسقى بها الدور والمساجد والفنادق ، وتميزت فاس بشبكة متقنة من المياه فكانت تسقى من وادي الجواهر بوادي فاس، بينما تسقى فاس الجديدة من عين عمير [4]. وبالمثل شيدوا سداً في وادي بوطوبة بفاس للتحكم في تنظيم المياه ، إلى جانب اهتمامهم بجر قنوات المياه ، ومدّ أنابيب فخارية لصيانة جداوله عبر مسافات طويلة [5]، وشهدت هذه الحقبة استعمال النواعير على نطاق واسع ، فكان نهر سوس مثلا يسقي تارودانت بواسطة قنوات ونواعير تجذب الماء لري الحقول والبساتين [6].

---

[1] - Deverdun(G); Marrakech des origins ,et techniques Nord Africaines , Rabat, 1912,T.1.P.195.

[2] - سحر عبد العزيز سالم: مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي منذ نشأتها حتى نهاية عصر بني مرين ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، ط1، 1966م، ص 105 .

[2]- ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، نشره محمود علي مكي، طبعة تطوان، المطبعة المهدية، 1987م، ص 169.

[3]- ابن القطان: نظم الجمان، ص 169 .

[4]- إبراهيم حركات: الحياة الاقتصادية في العصر المريني ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس، الرباط ، العدد 3-4 ، 1978، ص133.

[5]- الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1967، ص 78.

[6] - إبراهيم حركات: الحياة الاقتصادية، ص 132 .

لذلك سعت الدول المركزية لعدم ترك المجتمع عرضة لرهان الطبيعة ، فحاولت ما أمكن تسخير الطبيعة لصالح سلامة الصحة العامة، في سبيل تحقيق أفضل مجتمع صحي خالٍ من الأمراض والملوثات .

ب- التوسع في إنشاء الغطاء النباتي:

إن حق الاستثمار والانتفاع والتسخير الذي شرعه لله للإنسان يقابله واجب يقتضي المحافظة على الموارد الطبيعية كماً وكيفاً، وموقف الإسلام من البيئة ومواردها هو موقف إيجابي، فكما يقوم على الحماية ومنع الفساد، يقوم أيضاً على البناء والتعمير والتنمية، وذلك أن الغاية المنشودة من المحافظة على البيئة وعمارتها تحقيق مصلحة العامة للأفراد المجتمع على حدّ سواء 1.

لذا شكل الغطاء النباتي وثرواته الأولوية لدى السلطات الحاكمة، ومن منطلق اهتمام الإسلام، والعلماء بالغرس ودوره في صحة الهواء ، سعى الحكام إلى الاعتناء بالحزام الأخضر حول المدن [2].

حيث اهتم الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (487-558هـ/ 1094-1163م) بغرس البساتين[3] ، وعلى نفس المسيرة ، غرس المنصور الموحدي (580-595هـ/ 1184-1199م) بستاناً كبيراً طوله اثنا عشر ميلاً في مدينة مكناس [4]، كما امتلأت في عهده بساتين فاس ومكناسة بأنواع كثيرة من الفواكه الصيفية، والخريفية [5].

[1] - هناء فهمي أحمد عيسى: حماية الشريعة الإسلامية للبيئة الطبيعية دراسة فقهية مقارنة، مجلة كلية الشريعة والقانون بطنطا، مصر، 1918م، العدد 23، الجزء الأول، ص 181-182.

[2] - مارمول كربخال: إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، وآخرون، طبعة المعارف الجديدة، دار المعرفة، بيروت، 1986م، ج2، ص50

[3] - البيذق: أخبار المهدي بت تومرت، دار المنصور، الرباط، 1971م ، ص 120.

[4] - محمد المنوني: أبحاث مختارة، منشورات وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، 2000م، ص 241

[5] - ابن غازي: الروض الهتون، ص 3

يستشف من المصادر التاريخية أن هذا النظام الزراعي قد ساد أغلب المناطق المغاربية فحتى الشمال كجبل غمارة كان كثير الأعناب والفواكه [1]، وفي الجنوب تم الاعتناء به فقد أشار الإدريسي [2]، إلى كثرة البساتين وتنوع أشجار الفواكه.

كذلك اهتمت السلطة الحاكمة بالغابات الحراجية، بغض النظر عن أماكن وجودها سواء في الأماكن القريبة أم البعيدة، وقد احتوت هذه الغابات على أنواع كثيرة من الأشجار أهمها (العرعر، الزان الأخضر، البلوط، السرو، الصنوبر، الأركان [3].

يذكر مؤرخ المملكة المغربية [4]، أن الدولة المرينية قامت بزراعة الاشجار المثمرة كالنخل والعنب والتين والرمان والزيتون والتفاح والكمثرى والمشمش والبرقوق والقراشيا والفستق والبندق والتوت والجوز واللوز والليمون والنارنج، إضافة إلى الأشجار الحراجية، وقد وصف ابن الخطيب [5]، أثناء مشاهدته مدينة مكناسة الزيتون أنها كثيرة البساتين والأشجار

بالمقابل ساهمت الإجراءات الزراعية والتشجيرية التي جرت في الأندلس من قبل الحكام [6]، لفت انتباه المستشرقين، فقد أعجب جوزيف ماك كيب [7]، بوجود غابات السرو والصنوبر والنخيل...

[1] - مؤلف مجهول: الاستبصار، ص 190

[2] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ص64-65

[3] - ابن سعيد: نزهة الأنظار، ج1، ص175، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص 211

[4] - محمد المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط 1979م، ص 423.

[5] - الونشريسي: المعيار، ج6، ص65.

6 - أقام عبدالرحمن الداخل عام 138هـ/756م، قصر الرصافة، وغرس حوله الأشجار وقال فيه المقري: "ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر.." المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1983، ج1، ص467.

[7] - جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين، ص 53.

ج- الرعاية الصحية

لم يقف الأمر عند الغراس والتشجير، حيث أشارت النوازل [1]، إن أمويي الأندلس منعوا رشَّ المبيدات الحشرية لضررها في البيئة، وظهر ذلك بشكل جليّ أثناء اعتنائهم بزراعة التوت وعلوفة دودة القز، وكل ما يهم التعامل مع هذه المادة، ونتيجة للعناية والاهتمام الكبيرين من قبل الحكومة الأندلسية في القرن 6هـ/12م، عمد إلى إصدار مرسوم إلى جميع المربين والمنتجين، يقضي بتسليم الإنتاج من الغزل إلى دور الصناعة [2]، بمعنى إن استمرارية الحفاظ على إنتاج الحرير يتطلب بيئة سليمة خالية من الملوثات الكيماوية، ومنع كل ما يؤدي للإخلال بالنظم البيئية.

إلى جانب الحلول السابقة، سعت الدولة وعلى أعلى مستوياتها بتقديم العلاج، والدواء، وكل ما هو كفيل بتحقيق السلامة الصحية، ولسنا في صدد دراسة تاريخ الطب في الغرب الإسلامي، وإنما تقديم إشارات لتبيان أهمية ما قدمته الدول الحاكمة من رعاية صحية.

يمكن القول إن أول مراكز للعلاج في الغرب الإسلامي وأكثرها دواماً واستمراراً، هي المنازل، وتشير المصادر [3]، المؤرخة لتلك الحقبة أن كثيراً من الأطباء فتح أبوب منازلهم لاستقبال المرضى وعلاجهم، لا بل ذهبوا أبعد من ذلك حين احتفظوا بالمرضى في بيوتهم لتمريضهم. ما يدل على قدسية الطب، وأهمية الاهتمام بأفراد المجتمع من الناحية الصحية.

مع نهاية القرن 5هـ/11م، بدأ ظهور نوع جديد من أماكن العلاج، ويقصد به دكاكين الأسواق، وتختلف عن المنازل بكونها أكثر انفتاحاً في وجه المرضى بمن فيهم الغرباء. بمعنى تزايد دور الطب العلمي في العلاج وتزايد

[1] - الونشريسي: المعيار ، ج8، ص 207 .

[2] - محمد مرسي الكحلاوي: مراكز صناعة الحرير في الأندلس من خلال النصوص التاريخية مع تطبيقات على بعض المنسوجات الحريرية ، مجلة الآثار ، جامعة القاهرة ، 1990 م ، ص 211.

[3]- ابن جلجل (سليمان بن حسان ت322هـ): طبقات الأطباء، تحقيق: فؤاد السيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م، ص 97، ابن أبي أصبيعة: عيون الأنباء، ص66.

الإقبال عليه، وهو ما أكده أحد الباحثين [1] عندما أشار إلى أنّ "الأطباء اتخذت دكاكين لهم في الشوارع والأسواق".

مع حكم الدولة الموحدية عرف الطب نظام البيمارستان، فقد أنشا الخليفة المنصور الموحدي في مراكش بيمارستاناً، وذلك سنة 535هـ/ 1140م، مجهزاً بكل أنواع العلاج [2]، حيث يعاين فيه المرضى بما أعد لهم من "المنازه والمياه والرياحين والأطعمة الشهية المفوهة فتنعشه من حينه" [3].

كما سعى الحكام المرينيون إلى مساعدة المرضى والتخفيف عنهم، وذلك من خلال بناء البيمارستانات وتقديم الأدوية والعلاج بالمجان، ليستفيد منه أكبر قدر ممكن من أصحاب الأمراض والعاهات [4]، ورتب الأطباء بتفقد أحوالهم ، وأجرى عليهم المرتبات والنفقات، كما أجرى على الجذامى، والفقراء مالا معلوماً[5].

توسعت البيمارستانات في عصر الدولة المرينية، حيث وجدت في مدن عدة (فاس، مكناسة، سلا، آسفي، تلمسان) والمتأمل إلى التوزع الجغرافي يلحظ أنها شملت كافة مناطق المغرب الأقصى.

أما في الأندلس فقد ظهرت البيمارستانات في القرن 8هـ/14م، في مدينة غرناطة، وقد وصفه ابن الخطيب بآية من الإبداع يكشف عن الاختيار المناسب، والمناظر المريحة للأعصاب، وهدوء المكان ونقاوة الهواء، قائلاً: " فخامة بيت ورحب دور ومياه وصحة هواء وتعداد خزائن وميضآت وانطلاق

---

[1]- عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1988م، ص 188.

[2]- ابن أبي زرع: الأنيس، ص 157.

[3]- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ط2، 1984م ، ص541.

[4]- حول حقوق المرضى والجذامى في أوروبة في الحقبة الوسيطة وخاصة قي فرنسا ، أنظر. Vovell(Michel);La mort et l occident de nos jours, editions Callimard et Panth eons,Paris 1983,P.101.

[5]- مؤلف مجهول: مفاخر البربر، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية ، دار أبي رقراق، القاهرة ، ط1، 2005م، ص 45.

جرايــة وحســن ترتيــب أبــر علــى مارســتان مصــر بالســاحة العريضــة والأهويــة الطيبة" [1].

وبالمقابـل لـم يـدخر الأطبـاء جهـداً أو وسـيلة فـي سـبيل إيجـاد حلـول طبيـة لمعالجـة الأمـراض والأسـقام، ومـن ذلـك الطـاعون الـذي شـغل بـال النـاس، وقـضّ مضـجعهم، وكـان سـبباً فـي الهجـرات القسـرية، والتغييـرات الديموغرافيـة، وانحسـار الزراعـة نتيجـة هجـرة الفلاحـين للأراضـي؛ فقـد تمـت مناقشـة موضـوع الطـاعون فـي مملكــة بنــي نصــر بغرناطــة ســنة 748هــ/ 1348م، وعواقبــه علــى الســكان، وظهـرت ثلاثـة أبحـاث تتنـاول الطـاعون لكـل مـن الأطبـاء (محمـد بـن الخطيـب الذي تناول فيه ما يتعلق بالعدوى، والطبيب محمد الشقوري، وابن خاتمة) [2].

عرفـت الـبلاد – مـدار البحـث– أنظمـة مختلفـة مـن العلاجـات، كنظـام التأهيـل بعـد الشـفاء [3]، وذلـك دليـل الاهتمـام بالصـحة حيـث كـان يـتم الإشـراف علـى المريض بعد خروجه من المشفى للاطمئنان على سلامته الصحية.

ونظـام العـزل والوقايـة، وذلـك خشـية نقـل العـدوى بـين أفـراد المجتمـع، وتخصـيص أمـاكن مختلفـة لإيـواء ذوي الأمـراض الخطيـرة [4]، حيـث يشـير التنظـيم الأركيولـوجي للمدينـة الإسـلامية طبيـاً، إلـى تعـدد الحـارات والمنـازل فـي مغـرب العصـر الوسـيط حـول وجـود أسـماء حـارات تعطـي الباحـث فكـرة عـن تقـدم حضـاري مزدهـر فـي كيفيـة التعامـل مـع التلـوث الصـحي – وإن لـم يكـن بشـكله

[1]- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق: محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط4 ،2001م ، ج3، ص50-51.

[2]- كونسيبسيو فاز كويز دي بنبيتو: الطروحات الطبية واللاتينية وغيرها في القرن الرابع عشرالميلادي، ترجمة: حاتم الطحاوي، ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، تقديم إسماعيل سراج الدين و آخرون، مكتبة الاسكندرية، 2007م، ص272.

[3]- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، طبعة البيضاء، ط7، 1978 م، ص288.

[4]- أنظر حول ذلك، ابن الزيات : التشوف في رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، ط1، ص 258.

الدقيق في عصرنا الحالي – فمثلاً وجود حارة الجذماء، خارج مراكش كان إجراء وقائياً سعت من خلاله الدولة الموحدية إلى إبعاد مرضى داء الجذام عن عامة الناس تجنباً لانتشار العدوى بينهم [1].

كما عرفت الحقبة المدروسة نظام الطب النفسي، فقد أوجدت حدائق طبية كانت تزرع فيها النباتات الطبية، ويتم التداوي عن طريق الاستماع للقصص أو الموسيقى [2]؛ لذلك فقد كان الفن عالي الذوق، في المظهر الخارجي، والداخلي، وكل ما يبعث الهدوء والراحة لنفس المريض [3].

إن المجهودات الرسمية خلال الحقبة المعنية بالدراسة كانت قائمة على عدة مراحل، ما يؤيد وجود برنامج صحي وبيئي على أعلى المستويات ، هدفه تحقيق السلامة الصحية داخل البنية الاجتماعية .

كل هذه الإجراءات تشير إلى وعي السلطة الحاكمة للآثار المترتبة على الهزات التلوثية الناتجة عن الجوائح الطبيعية والبشرية ، لذا دأب الحكام – خلال الحقبة مدار البحث – إلى إيجاد صيغ وحلول تضمن ما أمكن تسوية الأوضاع الصحية للمجتمع ، وذلك من إخلال تحقيق مستوى عالٍ من الضمان الصحي؛ تمثلت بعدة عوامل: كالحفاظ على الحزام الأخضر، إيصال المياه (عنوان الحضارة والنظافة) إلى كافة الأماكن، وتقديم ضمان طبي كبناء البيمارستانات، وتقديم العلاج بالمجان، وإيجاد أماكن للعزل، خشية العدوى، والمتابعة الصحية إلى ما بعد الخروج من المشافي، فضلاً عما يعرف اليوم بالاستجمام أو الطب النفسي؛ ناهيك عن جرايات مالية للأطباء كانت تأخذ من الخزينة العامة وأحيانا تحول أموال الجزية إلى مرتبات لهم. فلا غرابة إذا ما قلنا

[1]- ابن الزيات: التشوف، ص268.

[2]- ألفاريز دي مورااليز: البيمارستانات والمستشفيات، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، تقديم إسماعيل سراج الدين و آخرون، مكتبة الاسكندرية، 2007م، ص283.

[3]- للمزيد أنظر، ابن الخطيب: الإحاطة ، ج3، ص50-51، الحميري: الروض المعطار، ص541.

إن السلطات الحاكمة قد وعت إلى ظاهرة التلوث من خلال خلق برنامج صحي عالي المستوى.

د- الإجراءات الرقابية العامة (الحسبة):

إلى جانب عمل المؤسسات الحكومية، شكلت الحسبة نظاماً رقابياً صحياً عالي المستوى، من خلال الحفاظ على نظافة الطرق، والأسواق العامة، وحماية الأغذية من التلوث، فضلاً عن منع ما يعكر صفو الهواء، جراء انبعاث الروائح الكريهة. وقد تجسد ذلك بمجموعة من الصور:

1- الحفاظ على البيئة من القمامة:

نهى الإسلام وبشكل جلي عن إفساد البيئة، وإخراجها عن طبيعتها السليمة، وتجلى ذلك بالتحريم الشرعي لإلقاء النفايات في المياه أو الأتربة الزراعية، وضرورة التخلص منها دون إلحاق ضرر وأذى بمصالح الناس وهو ما أكده الحيث النبوي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، "الإيمان بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق" [1]. ويستقرأ من الحديث ضرورة الحفاظ على البيئة، وعدم إفسادها وتشويه مواردها الحية.

ولما كان العامل الديني أو الموروث الثقافي في المجتمع الإسلامي حاضراً وخاصة في موضوع النظافة، في المنع والجواز، فقد أكد رجال الحسبة أمثال، ابن عبدون [2]، على الاهتمام بنظافة الطرق وذلك بحمايتها "عن طرح الزبول والأقذار والكناسة فيها وإصلاح المواضع المتطأمنة التي تمسك الماء والطين".

وخشية من نقل العدوى وتفشي الأوبئة أكد أيضاً ابن عبدون [3]، على إصلاح القنوات وخاصة في زمن الصيف. فكما هو معلوم تجمع المياه القذرة يؤدي إلى انتشار الحشرات وبالتالي انتقال الأمراض عن طريق العدوى.

[1] - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شعبة الإيمان، رقم 58، ج1، ص 63.
[2] - ابن عبدون: ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، نشرها بروفنسال، طبعة القاهرة ، 1955م، ص37.
[3] - ابن عبدون: ثلاث رسائل، ص37.

وبالمقابل لم يغب عن بال المحتسب الاهتمام بشوارع السوق، لذا فقد نهى عن رمي دماء البهائم، "وأوساخ الكروش داخل السوق" [1].

ونتيجة لقيام بعض الكنافين [2]، برمي الكنف داخل المدينة، فقد نهوا عن ذلك ووجدت أماكن مخصصة لهم [3].

2- محاربة التلوث الغذائي (الأطعمة والأشربة):

وهذا الدّور نابع من الحفاظ على الصحة أيضاً، ويمكن القول إنه يشبه في زماننا مؤسسة حماية المستهلك. ومن ذلك الحفاظ على نظافة ألواح العجين بوجوب غسلها وجردها، ومسحها [4]. ولعل ذلك منعاً للرطوبة خشية تعرضها للحشرات ونقل المرض.

ووجوب غسل رؤوس الضأن التي تمشي في الأسواق لأن ذلك يسبب تلويث ثياب المارة، وربما يعلق بها الوسخ وتنقل المرض [5]. كما أشار المحتسب [6]، إلى عدم شراء الأطعمة من البائعين المرضى خشية نقل المرض جراء العدوى [7]، وتغطية صهاريج المياه وعدم كشفها خشية وقوع شيء فيها 8. ولم يغب عن بالهم المطالبة بتغطية الأطعمة والأشربة والزيوت خشية من دخول الحشرات والفئران نظراً لما تسببه من أمراض على الصحة البشرية [9].

---

[1] - ابن عبدون: ثلاث رسائل ، ص44.

[2] - عمال يقومون بإفراغ الغائط من الدور

[3] - بن عبدون: ثلاث رسائل، ص 37.

[4] - ابن عبدون: ثلاث رسائل، ص48.

[5] - ابن عبدون: ثلاث رسائل، ص47.

[6] - ابن عبدون: ثلاث رسائل، ص50.

[7] - وفقاً للقاعدة الشرعية - يَتحمَّل الضَّرر الخَاص لأجل دفع الضَّرر العَام – بمعنى مع كل ما يؤدي إلى ضرر الناس وإيذائهم والإخلال بالنظم البيئية حتى ولو أدى ذلك إلى حدوث ضرر خاص ببعض الأشخاص. أحمد محمد الزرقا: شرح القواعد الفقهية، تنسيق ومراجعة: عبدالستار أبو غدة، دار القلم، دمشق، ط2، 1409هـ/ 1989م، ص 197.

[8]- ابن عبدون: ثلاث رسائل، ص48.

[9] - ابن عبدون: ثلاث رسائل، ص52.

لم يقتصر الأمر على ذلك حيث جعلوا الماء مخصصاً، فلا يجوز وضع الماء المجلوب من الحمام مثلاً على الخبز، إذ لا يؤمن ما قد يسقط به فيكون سبباً في حصول المرض والتلوث [1].

لقد عرف نظام العصر الوسيط بالغرب الإسلامي، عمل السقاء، وعمله إيصال المياه إلى المنازل، والدور لسد متطلبات الأسرة، كما يقوم بتقديم المياه للمارة في الأماكن العامة، والتجمعات، وتشير كتب الحسبة إلى تنبه المحتسب لنظافة المياه التي يأتي بها السقاؤون، فقد أكدوا على نظافة الأماكن يجلبون منها المياه، كما أكدوا على ضرورة عدم أن يشرب المرضى منهم خشية نقل العدوى إلى أفراد المجتمع [2]، وبالمقابل أكد المحتسب أن يمنع النساء من الغسيل بالقرب من موضع السقاية.

3- حماية الهواء من الروائح الكريهة:

نظراً لما يسببه الدخان والروائح الكريهة من أذى عام، فقد استرعى الأمر تدخل المحتسب لمعالجته قدر المستطاع، وفق منطق العقل، والصحة. ومن ذلك على سبيل المثال فقد طُلب من الخبازين عدم مجاورة بائعي اللحوم، والأسماك، والحجامين، خشية التلوث لأن الهواء ينقل المرض [3]، كما طُلب من أصحاب المحلات ذات الروائح الكريهة كـ اللحوم والأسماك التواجد ضمن أماكن مخصصة لهم، والقيام دائماً بتنظيف ساحاتهم [4]، وطلب من الفرانين أن ترفع أسقف حوانيتهم وأن يجعل في سقوف الأفران منافس واسعة ليخرج منها الدخان لئلا يتضرر بذلك الناس، وأكد المحتسبة [5]، وبشدة عدم استخدام الزيت لقلي اللحوم والأسماك لأكثر من مرة نظراً لرائحته الكريهة.

[1] - ابن عبدالرؤوف ثلاث رسائل، ص 90.
[2] - ابن عبدون: ثلاث رسائل، ص41.
[3] - ابن عبدالرؤوف: ثلاث رسائل، ص 90.
[4] - ابن عبدالرؤوف: ثلاث رسائل، ص96
[5] - ابن عبدالرؤوف: ثلاث رسائل، ص 97.

شكل عمل المحتسب نظاماً صحياً غاية في الإتقان والروعة، إذا لم يقتصر بالحفاظ على النظافة العامة، من خلال الحلال والحرام، والمنع والجواز، بل تعداه ليشمل أمور تتعلق بالصحة العامة، والتلوث البيئي، من خلال رصد الظواهر والفلتات المشينة ومراقبتها، ومن ثم معالجتها وفق ضوابط صحيحة، وذلك للحفاظ على بيئة صحية سليمة خالية من الأمراض والأوبئة، والتلوث.

هـ – البيئة في الجانب الفني للحكام :

بما أن الفن يعد من مظاهر الحضارة والتمدن، وجمال الرؤيا، منعاً لتلوث العين، وطلباً لسكينة الروح البشرية، فقد حرص الفنان المسلم، على إخراج العمل الفني بأحلى صورة، صوّر فيها الطبيعة، والبشر، وتميز عمله، بالروحانية، والهدوء، والرتابة. فعلى سبيل الذكر لا الحصر، استخدم السلطان أبو الحسن المريني في بناء قصره الدهانون، و الصفارون، واستخدم الكماليات، كالجبص، والنقش في الأرز، والتوريق، والتسطير، إضافة إلى الفاره من النحاس، والذهب ، والحديد المقصدر [1].

مما سبق نلحظ أن الدول الحاكمة لم تقف صامتة إزاء تقلبات الطبيعة المتمثلة في كرمها وشحها، فضلا عن عملياتها التدميرية للثروات الزراعية والحراجية، ناهيك عن الحروب والحرائق التي تؤثر في البيئة وسلامتها الصحية، لذلك كان الاهتمام والوعي كبير ليس فقط بالمنتوجات الزراعية، وإنما بالغابات الحراجية، فقد سعى الحكام إلى تأمين نظام زراعي مستقر إلى حد ما، وذلك من خلال المشاريع الاستثمارية الهادفة للصالح العام، وتأمين حاجة السكان من الماء بطريقة منظمة دون اللجوء إلى الحلول الفردية من قبل أفراد المجتمع التي غالباُ ما تكون هزيلة وتسبب في نقل الأمراض والعدوى، فضلا عن إيجاد منظر جمالي للمدينة الإسلامية والمحافظة على نظافتها كون ذلك من تقاليد الإسلام، والأهم تقليل التلوث والمحافظة على الصحة العامة لأفراد المجتمع الإسلامي

[1] - الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص 73.

من خلال تلك المشاريع البيئية، التي تساهم بشكل ملحوظ في تنقية الهواء والحفاظ على الصحة العامة.

2- _مجهودات المؤسسة الدينية:

مما لا شك فيه أن المؤسسة الدينية لم تقف مكتوفة الأيدي تجاه كل ما من شأنه أن يؤثر سلباً في الحالة الصحية للمجتمع، و ربما استفادت من طبيعة الاحترام الذي يكنه أفراد المجتمع لها بحكم مكانتها، ولذلك فإنها لم تدخر جهداً في معالجة الفلتات الفردية وفق منطوق الجواز، والمنع الشرعي، هدفاً لخدمة الصالح العام، ولتحسين بيئة صحية خالية من الأوبئة، والملوثات الهوائية، والسمعية، والعينية، ونظرة راصدة تفصح ذلك.

فقد تدخل الفقهاء للمحافظة على صحة الطعام، ومنع تلوثه، كعدم أكل طعام المطامير التي وقع بها الحيوانات النجسة [1]، ومنع شرب المياه التي يقع بها الفئران [2]، لأنها تنقل المرض والعدوى، ومنع تردد العامة على صهاريج الشرب التابعة للمساجد لما يسبب ضرر وعدوى للمصلين [3].

وبالمقابل أكدت النوازل حول منع من كان بهم مرض كالجرب، مخالطة العامة، وخاصة في أماكن الازدحام كالمساجد [4]، ما يؤكد نظام الحجر الصحي منعاً لنقل العدوى من السليم إلى المعتل.

وبما أن صحة الهواء من ضروريات الحياة، فقد منع الفقهاء كل ما يؤثر في صفوه ويعكره [5]، لذلك صدرت الفتاوى لمنع أو ترخيص الأنشطة المهنية داخل الأحياء السكنية [6].

---

[1]- الونشريسي: المعيار، ج1، ص1.
[2]- الونشريسي: المعيار، ج1، ص12
[3]- الونشريسي: المعيار، ج8، ص440
[4]- الونشريسي: المعيار،ج1، ص16
[5]- الونشريسي: المعيار،ج1، ص412.
[6]- عبدالرحمن بن صالح الأطرم: ابن الرَّامي البناء(الإعلان بأحكام البنيان)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، الرياض، 1403هـ، 301-303.

ونظـراً لاحتـرام العامـل الـديني واحتـرام أهـل الحـلّ والعقـل، مـن الفقهـاء ورجـال الـدين، فقد كـان هـؤلاء بحكم خبـرتهم القانونيـة المنبثقـة مـن الشـرع، يتـدخلون بإصـدار فتـاوى وأوامـر لمنـع أو تـرخيص بعـض الأنشـطة المهنيـة داخـل الأحيـاء السـكنية، مثلمـا هـو الشـأن فـي عمـل بعضـهم كضـرب النـوى فـي البيـوت وهـو مـا يضـر بـالجيران، جـراء الصـخب والضـجيج، والأصـوات المرتفعـة المزعجـة نتيجـة لانتشـار ورشـات العمـل[1]، أو قيـام بعضـهم بـالطحن داخـل المنـازل [2]؛ لـذلك كـان الجـواب مطابقـاً للقـرآن والسـنة، بـالرفض والمنـع لمـا يسـببه ذلـك مـن تلـوث ضوضـائي [3] –ضـمن منطـوق العصـر الحـالي– وفـي حـال الوجـوب كانـت الأجوبـة الفقهيـة الابتعـاد عـن حـائط الجيـران مقـدار ثمانيـة أشـبار [4]. بالتـالي هـدف أهـل الإصـلاح، والمعنيـون بـالأمر إلـى تقـديم كـل مـا يخـدم البيئـة، والصـحة السـليمة، ومنع إحداث أي ضرر يعكر صفو المجتمع.

نظراً لما تفرزه الأزمات والجوائح و خاصة أيام هرم الدول وانحدارها، وما يصاحبها من رجّات اقتصادية خانقة، فضلاً عن انتشار الأمراض، والأوبئة، وبما أن المجتمع خاضع لتجاويف مكانية وزمانية، بمعنى أن الاهتمام الحكومي لم يكن بنفس السوية بين العواصم والمدن والمناطق النائية. فكان من الطبيعي أمام كل هذه الضغوطات أن يقع العبء الأكبر على كاهل الفئات المستضعفة، والمهمشة.

فقـد سـاهمت سـرعة انتشـار الأمـراض، عـلاوة علـى بـروز سـلوكيات غيـر متعقلـة، فـي خلـق المنـاخ العـام لسـيادة دور المتصـوفة ، أضـف إلـى ذلـك محدوديـة

---

[1]- الونشريسي: المعيار، ج8، ص445.

2- الونشريسي: المعيار، ج9، ص 60.

3 - التلوث الضوضائي يحدث صخباً جراء الأصوات المرتفعة المزعجة، وهو ما نهى الإسلام عن كل مايعكر صفو الإنسان ويثير قلقه، ومن أجل تفادي الأصوات العالية المزعجة، جاءت نصوص القرآن والسنة محذرة من تجاوز الحد العالي في إصدار الأصوات، هناء عيسى: حماية الشريعة، ص 156. وسجل القرآن وصية لقمان لولده وهو يقول له: "وأغضض من صوتك" سورة لقمان، الآية19. كما نهى النبي محمد صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله: "لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً" .أبي داوود: سنن أبي داوود ، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1998م، ج2،ص 301.

4- الونشريسي: المعيار، ج6، ص 305

مرافق العلاج وخاصة في البوادي " وارتفاع تكاليف التطبيب " بحيث اقتصرت على فئة محدودة. لذا فقد اتجه الناس نحو رباطات الأولياء ، التماساً لبركتهم ، وتخليصا لهم من الأمراض المستعصية ، ولم يدخر المتصوفة جهدا في سبيل تخفيف معاناة ألم المصابين ، وذلك باستخدام كراماتهم الخارقة دون أجرة مقابل ذلك، فيكفي للولي أن يتفل أو ينفث على مكان العلة حتى يبرأ صاحبها ، وقد اشتهر بذلك الشيخ أبو يعزى [1]، وكذلك أبو زكرياء الأسود (ت601هـ) [2]، ومن باب كرامات الأولياء أن ريق الولي كان " رقية لكل شيء " [3]، كما أوثر عن أبي محمد الأبلة في مدينة سلا " إذا لمس بيده مريضا شفي وإذا قرأ في أذن مصروع أفاق " [4].

إذاً ساهمت الإفرازات التي نحتت ذهنية المجتمع وأثرت فيه، في ظهور المتصوفة ضمن فلسفات كان هدفها تخفيف أوجاع المرضى والمصابين، بمعنى أن المجتمع الإسلامي في أقسى ظروفه كان يخضع للعلاج ولم يكن يترك عرضة للموت كما في أوروبة خلال العصر الوسيط.

3 – مجهودات المكون الاجتماعي بالحد من التلوث:

بديهاً القول: إن مجتمع العصر الوسيط الإسلامي كان خاضعاً لمنطوق الحلال والحرام الشرعي، ولما كان الإسلام يحث على النظافة، ويعدّها من شعب الإيمان، وذلك ضرورة شرطاً لممارسة الشعائر الدينية، كونه لا يجوز أصلاً ممارستها إلا إذا كان الإنسان نظيفاً أنيقاً من ناحية الجسد والملابس.

تطالعنا المصادر التاريخية المؤرخة للحقبة المدروسة [5] أن النظافة احتلت حيزاً مهماً في تفكير سكان الغرب الإسلامي، كغيره من المناطق

1 - العزفي: دعامة اليقين في زعامة المتقين (مناقب الشيخ أبي يعزى)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ، 1989م، ص 50-51.

2 - ابن الزيات ، م.س، ص414.

3 - الصومعي: كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى ، تحقيق: علي الجاوي ، منشورات جامعة ابن زهر ، سلسلة رسائل وأطروحات ، اكادير، 1980م، ص 123 .

4 - الحضرمي: السلسل العذب، ص71 .

5 - الونشريسي: المعيار، ج9، ص 34-35، 38، 39،47، ج6، ص 50 . ابن عبدون: ثلاث رسائل، ص 37، 44، 48، 50.

الإسلامية، حيث أشارت كتب الحسبة، والنوازل، إلى تعدد المرافق العامة، بغية تحقيق النظافة العامة، وكان أهمها المسجد، والحمام.

ولعل تعدد الحمامات وانتشارها بكثرة في المدن المغربية والأندلسية، فضلاً عن انتشار الصهاريج، و المواجل، والخزانات [1]، أكبر دليل على النظافة.

إذ أمر الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين ببناء الحمامات، وبلغت في عهده نحو عشرين حماماً [2]، وفي العصر الموحدي نالت الحمامات عناية فائقة، فقد بلغ عدد الحمامات زمن الخليفة الناصر الموحدي (595- 610هـ/1199-1213م) "ثلاثاً وتسعين وثلثمائة"[3].

وحسب مشاهدات السبتي [4]، بلغ عدد الحمامات في مدينة سبتة لوحدها، "اثنين وعشرين حماماً". هذه الأرقام تعطينا تصوراً واضحاً أن النظافة العامة أصبحت ثقافة تلك الشعوب، كما ذكر أحد المستشرقين أن الحمامات كانت منتشرة في المدن، والقرى [5].

ويقول المستشرق جوزيف كليب: " فكانت في قرطبة وحدها تسعمائة حمام...أما في بقية أوروبة فلم يكن فيها ولا حمام واحد...وكانت النظافة عند المحمديين فرضاً مقدساً" [6]؛ كما أن أحد المستشرقين الفرنسيين في القرن السابع عشر استنتج أن الصحة الجيدة التي يتمتع بها المسلمين جاءت من

[1]- مباني لها صلة بالمنشآت المائية وهي صهاريج كبيرة تجمع فيها المياه. عبدالرحمن حسبالله الحاج أحمد: بنو الأغلب ودورهم الحضاري في إفريقيا، مجلة دراسات إفريقية، جامعة إفريقيا العالية، العدد العشرون، يناير1999م، ص 168.

[2]- ابن أبي زرع: الأنيس، ج2، ص44

[3]- البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مطبعة المثنى بغداد، نشر البارون ديسلان، الجزائر، 1857، ص 115.

[4]- السبتي: اختصار ، ص 49-50.

[5]- ليبوليد توريس بلباس: الأبنية الإسلامية الأندلسية، ترجمة: علية إبراهيم العناني، تقديم : محمود علي مكي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، اسبانيا، 1953م، العدد الأول، المجلد الأول، ص 109.

[6] - جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين ، ص52، 69.

حفاظهم على صحتهم الجسدية حيث يترددون إلى الحمامات مرتين في الأسبوع على الاقل و هذه النظافة نابعة من صميم العقيدة الإسلامية 1.

كما دأب الناس في مجتمع الغرب الإسلامي الوسيط – ضمن رهانهم الدائم مع التحولات المناخية – إلى تلبية حاجاتهم من المياه ، وذلك إما عن طريق حفر الآبار أو بناء السدود ، أو مدّ السواقي أو إقامة الصهاريج . فقد قام المراكشيون بتخزين مياه الأنهار مثل (نهر نفيس و تانسيفت) في صهاريج كبيرة كانت تدعى " البرك " [2]،وهي خزانات كبيرة لتجمع " ماء سيول الأنهار " [3].

ومنها أيضا الصهريج الكبير الذي وصفه العمري قائلا : " والصهريج في لغة أهل المغرب البركة ، وهب بركة عظيمة عليها سور وباب يصب فيها النهر .. الداخل إلى مراكش ، وفيها يوزع بقياس معلوم على قصور الناس ثم ينحدر بقية الماء وفي نهر يشق المدينة من جهة أخرى في وسط الأسواق .. وفيها برك تصب فيها المياه " [4].

إضافة إلى انتشار السقايات العمومية، فقد أشار الأنصاري [5]، إلى وجود خمس وعشرين سقاية عمومية اصطناعية .

وتشي النصوص التاريخية المتاحة، مدى ما وصل إليه المجتمع – مدار الحقبة المدروسة – من اهتمام عالٍ بالنظافة والأناقة في المأكل والملبس والمشرب والمظهر العام.

---

[1] Jean Thévenot: Relation d'un voyage fait au Levant, vol. I, à Paris, chez Louis Bilaine, M. DC. LXIIII, avec Privilege du Roy, 1663, p 71.

[2]- المراكشي: الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ، المطبعة الملكية، الرباط، 1978م، المطبعة الملكية، ج1، ص131.

[3]- المراكشي: الإعلام ، ج1، ص 131.

[4]- العمري: مسالك، ص 133-134 . كما ابتكر الأندلسيون طرقا جديدة كنظام وكالة الساقية وذلك لاستغلال المياه بطريقة تكفل التوزيع المتماثل . Emmanuel Dufourcq;La vie quotedienne dans L Euroupe sous La domination arab,Paris,1978,P.94.

[5]- السبتي: اختصار الأخبار، ص40.

كما صورت كتب الأزجال الأندلسية [1]، أفراد المجتمع الأندلسي، واعتناءهم بالنظافة أنهم أشدّ خلق الله اعتناء بالنظافة، وأن بعضاً من أهل الأندلس يفضّل أن يبقى جائعاً مقابل أن يظهر نظيفاً، عَطِراً أنيقاً؛ وهو ما أكده ابن الخطيب [2]، حول تقدم صناعة العطور، والزهور الطبيعية، عندما قال: "وثياب أهلها بالعبير تتأرج، وحورها تتجلى وتتبرج".

اهتم الأندلسيون بكل ما يمكن أن يجلب الراحة والسعادة، والسكينة إلى النفس البشرية، فالمناظر الجميلة تبعث الهدوء والسكينة في النفس البشرية، وهو ما تذكره الدراسات التاريخية أنهم أحاطوا منازلهم بالحدائق والنوافير، والبرك، والجواسق، والأحواض، التي تم بناؤها من الرخام المصقول الجميل [3]. ومعلوم أن الزهر والماء يؤلفان عنصراً حيوياً للمكان وبهجة وأنس للروح، بمعنى أنهم وصلوا إلى ما يعرف اليوم بالمحافظة على العين من التلوث البصري؛ من المناظر القبيحة؛ كما تم عزل الطيور والحيوانات في أماكن خاصة للحفاظ على النظافة ومنع انتقال المرض من الحيوانات إلى الإنسان [4].

لاتقف المصادر صامتة عند المنظر العام، والملبس، وإنما تكشف وبوضوح مدى رقيّ ونظافة أهل الأندلس، فقد أوجدوا أدوية خاصة للتخلص من عرق الإبط، ورائحته، ومنع احتكاك الأفخاذ.

أمام ذلك الاعتناء البهي، كان للمرأة حضوراً عندهم فأوجدوا التبييض للسمراوات، واللون الذهبي (ما يعرف اليوم باللون البرونزي) وصبغ الشعر للمرأة

[1]- ابن قزمان: ديوان ابن قزمان، ف كورينطي، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد، 1980م، زجل رقم 68.

[2]- ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص109

[3]- مانويل جوميث مورينو: الفن الإسلامي في اسبانيا، تر: عبدالعزيز سالم و لطفي عبد البديع، مراجعة: جمال محرز، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1978م، ص334 .

[4] - Provençal ; (E.Lévi) «Histoire de l'Espagne Musulmane ; le siècle de califat de Cordoue» ; Maisonneuve et larose ; Tome 3 ;paris ;1999. , P.144.

والرجل، ومعالجة النمش، والبرص، والأمراض الجلدية [1]. بمعنى اهتمام عالي المستوى بجمال الإنسان.

كما كان لديهم الوعي الطبي وتطويع الطبيعة، والاستفادة منها لخدمتهم، خاصة في موضوع المداواة، ومن ذلك الاستفادة من مياه الأنهار ، كمياه أحد أنهار فاس الذي اكتشف بالتجربة المستمرة أنه يقوم بتفتيت الحصى من المثانة، ويقضي على حشرات الرأس [2]، إضافة إلى اكتشاف بعض الثمار، مثل الكمثرى، حيث كانت تجمع وتبقى حتى تجف، ثم توضع على النار لتذوب، وكان يتم التداوي بها لمريض الكلى، وإدرار البول [3].

وإلى جانب المؤسسات الطبية الرسمية وجد أطباء الشعب وكان هؤلاء يعالجون الفقراء بالمجان [4]. بمعنى حرص ووعي دقيق بمدى خطورة الأمراض ومكافحتها خشية العدوى، والتلوث، فضلاً عن وجود ضمان صحي دقيق.

لما أكد الإسلام ضرورة دفن الموتى وكان ذلك من بديهيات الإسلام، فقد أشارت المصادر [5] إلى دفن الموتى حتى في أصعب الظروف – وإن لم يكن عاماً– فرغم الأعداد الكبيرة جراء الوباء الذي انتشر في هواء مراكش سنة 571هـ/1775م، كان الإنسان يحمل إلى موضعه وأهله ليتم دفنه.

لا مشاحة من القول: إن مجتمع الغرب الإسلامي، قد وعى ضرورة المحافظة على النظافة والصحة والبيئة، ليس من منطوق إسلامي فقط، بل لضرورة تحتمها الحياة، فكان أن وصل إلى هذه الدرجة العالية من النظافة والرتابة، لا بل طوّع الطبيعة قدر الإمكان لتساعده في معالجة الأمراض في حال تعذر الوصول للأطباء، وجعل من الطبيعة بقدر قساوتها بهجة تبعث

[1]- أنظر حول ذلك، عصمت دندش: الأندلس في نهاية، 188-189.
[2]- الجيلاني: رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس، مخطوط دار الكتب المصرية، تحت رقم (9732ح)، ص40.
[3]- مجهول: الاسبصار، ص31.
[4]- ابن الزيات: التشوف، ص259-260.
[5]- ابن أبي زرع: الأنيس ، ص 216.

السكينة والأنس في النفس فحافظ على جمالية العين من تلوث المكان، وعلى السمع من تلوث جراء الأصوات الهادرة المقلقة.

خاتمة

تأسست نتائج البحث على التوليف بين المعطيات المصدرية المتاحة، مع تطعيمها ببعض الاجتهادات الخاصة التي تمتح روحها من سياق المنظور التاريخي المعاصر.

ويبقى هذا البحث المتواضع على قدر ما توفر من معلومات مصدرية، ماهي إلا محاولة تصدت للحديث عن التلوث والصحة في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ؛ تم من خلالها تسليط الضوء على الواقع البيئي و الصحي لإنسان العصر الوسيط في الغرب الإسلامي، رغم التحدي الكبير الذي تجسد في شح المعلومات التاريخية، لكنَّ الاسترشاد ببعض الإشارات والإيماءات المصدرية أن نتلمس مدى إدراك الإنسان في الفترة المدروسة لموضوع التلوث و الصحة العامة.

وبتلك الفرضية المصدرية يمكن القول: إن مجتمع العصر الوسيط في الحقبة المدروسة، كان مدركاً تماماً لموضوع التلوث و ما يسببه من منغصات على حياته، رغم ضعف الإمكانيات العلمية و التقنية في تلك الفترة، و خلوها من الصناعات الثقيلة والمصانع الضخمة ووسائل النقل التي نستخدمها اليوم، التي في مجملها تسبب التلوث، إلا أن بيئة تلك العصر كان لها ما يلوثها سواء بعوامل طبيعية أو حتى عوامل إنسانية.

واستمراراً في التأكيد على اعتبار المسببات الطبيعية والبشرية للتلوث قاسماً مشتركاً لحدوث التلوث وإحداث اهتزازات على صحة الإنسان والبيئة، كان بديهياً أن تسفر تلك الوضعية عن إجبار المعنيين للانخراط في إيجاد حلول لهذه

الظـاهرة، فقـد أوضـح البحـث مـدى المحـاولات التـي قـام بهـا رجـال الإصـلاح مـن الحكـام والسياسـيين والأعيـان ورجـال الـدين فـي إنعـاش الواقـع الصـحي والبيئـي، ومـا تضـافر الجهـود وتكافلهـا عنـد هـذه الفعاليـات الـثلاث إلا دليـل وعـي إنسـان تلـك الفتـرة لضـرورة الحفـاظ علـى الصـحة العامـة و المحـيط البيئـي لمـا لـه مـن آثـار إيجابيـة علـى حيـاة الإنسـان؛ و لا يغيـب عـن بالنـا أهميـة العامـل الـديني الـذي عـزز الـوعي و الإدراك لمخـاطر التلـوث كـون الحفـاظ علـى النظافـة مـن صـلب العقيـدة الإسـلامية. وعلـى الـرغم مـن الـوعي بمخـاطر التلـوث وقـدرة مجتمـع تلـك الفتـرة السـيطرة علـى بعـض مسـببات هـذه الظـاهرة و إن كـان بمسـتويات مختلفـة سـواء علـى الصـعيد الحكـومي أو المؤسسـة الدينيـة أو حتـى المسـتوى الفـردي، كثيـراً مـن مسـببات ظـاهرة التلـوث بقـى خـارج عـن حـدود السـيطرة، كـون إمكانيـات تلـك الفتـرة لـم تصـل إلـى مـا وصـلت إليـه إمكانيـات المجتمـع البشـري فـي عصـرنا الحـال، و أمـام هـذا فإنـه مـن الظلـم أن نقـارن حالنـا اليـوم تجـاه ظـاهرة التلـوث و الصـحة العامة بما كانت عليه الحال في العصر الوسيط.

توصـل البحـث للقـول: إن مجتمـع تلـك الفتـرة قـام بـالكثير مـن الإجـراءات التـي ربمـا لـم يكـن مـدركاً لإبعادهـا و دون الاسـتناد إلـى قاعـدة علميـة، كمـا هـو الحـال فـي عصـرنا، فجـاءت الكثيـر مـن سـلوكياته مسـتندة علـى الفطـرة الإنسـانية، لكـن الغريـب بالموضـوع أننـا و علـى الـرغم مـن التقـدم الـذي و صـلنا إليـه اليـوم بمختلـف جوانـب الحيـاة العلميـة، و التقنيـة، لا يختلـف سـلوكنا تجـاه ظـاهرة التلـوث، و مسـبباته، عمـا كانـت عليـه فـي العصـر الوسـيط، لكـن الفـارق أننـا نـدرك اليـوم الكثيـر مـن الأمـور وفـق أسـس علميـة و لـدينا الكثيـر مـن الإمكانـات لنعـيش فـي مجتمـع أكثـر سـلامةً ممـا فـي السـابق؛ فـلا غرابـة أن أولئـك الشـركاء فـي مجتمـع

الحقبة المدروسة التي اصطنعت تلك النتائج الحضارية والاجتماعية كانوا أكثر حباً وتعلقاً وعناية بالعمارة البيئية.

وبفرضيتنا القائمة إن التلوث البيئي يساهم في تسريع حركة التاريخ وتكثيف تحولاته، واقتناعنا بأن العالم فضاء متحرك دائم التغيير، يتجدد باستمرار، ألفينا التأكيد على صحة البيئة والعناية بها كونها من أسس العيش الرغيد، وبالتالي لابد من تكثيف الجهود وتضافرها للحد من ظاهرة التلوث البيئي، والعناية بالصحة الإنسانية، خاصة في ظل الاتصال الجغرافي وهي ما يسميها "باراخ خانا" بالكونكتوجرافيا Connectography (الجغرافية الاتصالية) الذي تحل فيها القدرة على الاتصال مقام القوة العسكرية

إذاً لا بد من الحد من مصالح الشركات العملاقة متعددة الجنسيات التي كرّست الفقر ، وألحقت الضرر بالبيئة والمناخ، للحفاظ على الأمن الصحي الذي كلما انعدم اهتز استقرار المجتمع، ودبّ فيه الخوف والهلع.

ويجدر التنويه إلى أن ندرة المادة التاريخية وصعوبة التعامل مع الموضوع، وندرة الدراسات التاريخية التي تناولته أفضى إلى عدم استيفاء بعض المعلومات حقها من الدراسة، فظلت تمثل إشكالية مطروحة على بساط البحث، آملين بأبحاث تسبر أغوارها وتكشف، عن كنهها مستقبلاً.

مخطوطات

- ابن هيدرو: ماهية المرض الوبائي وتسمى أيضا الخطبة المكية في الأمراض الوقائية، محطوط،الخزانة الحسنية،الرباط، رقم(9605).
- الجيلاني (عبدالسلام الغرابلي ت 1188هـ): رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس، مخطوط دار الكتب المصرية، تحت رقم (9732ح).

المصادر العربية:

- القرآن الكريم
- ابن أبي أصبيعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن سديدالدين القاسم ت 668هـ): كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: مولر، القاهرة، 1982م.
- أبي داوود (سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ت 275هـ): سنن أبي داوود ، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1998م.
- ابن جلجل (سليمان بن حسان ت322هـ): طبقات الأطباء، تحقيق: فؤاد السيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م.
- ابن حجر الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، إعداد: عبدالفتاح حسن عبدالله، دار الكتب العلمية، بيروت، 1372هـ.
- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن على النصيبى ت 380 هـ) : صورة الارض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1990م.
- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد ت776 هـ): الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق: محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط4 ،2001م.

- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله التلمساني ت 776هـ): معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق: محمد كمال شبانة ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1423هـ/ 2002م .
- ابن خلدون (ولي الدين عبدالرحمن بن محمد ت 808هـ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المقدمة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط3 1427هـ 2006م.
- ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي ت 617هـ): التشوف في رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ط1، 1986.
- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك، ت 594 هـ): المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي،ط1 ، دار الغرب الاسلامي، ط3، 1987، ص358 .
- ابن عبدون (أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف عاش في القرن 6 هـ): ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، نشرها بروفنسال، طبعة القاهرة 1955م.
- ابن عذارى (أحمد بن محمد المراكشي كان حيا سنة 712هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني، محمد ابن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985.
- ابن غازي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد العثماني المكناسي ت 919هـ): الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط2، الرباط، 1988.
- ابن القطان (أبو علي حسن بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي ت 628 هـ) : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، نشره محمود علي مكي، طبعة تطوان، المطبعة المهدية، 1987م.

- ابن قزمان (محمد بن عيسى الزهري القرطبي ت 555هـ): ديوان ابن قزمان، ف كورينطي، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد، 1980م.
- ابن القاضي (أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي1025 هـ): جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة ، طبعة الرباط 1973.
- الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس ت 560 هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1414هـ / 1994م.
- البخاري محمد بن إسماعيل البخاري(ت256هـ/869م): صحيح البخاري، مكتبة الإيمان، المدينة المنور ،ط2، 1405هـ.
- البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي ت 487هـ: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مطبعة المثنى بغداد، نشر البارون ديسلان، الجزائر، 1857.
الجزنائي (أبو الحسن علي ت ق 8هـ): جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1967.
- البيذق(أبي بكر بن علي الصنهاجي ت559هـ): أخبار المهدي بت تومرت، دار المنصور، الرباط، 1971م.
- الحميري (محمد بن عبدالمنعم الحميري ت914هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ط2، 1984م.
- السبتي (محمد بن القاسم الأنصاري ت بعد سنة 825هـ): اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق: عبدالوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط1417،3هـ/1996م.
- الصومعي ، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى ، تح/ علي الجاوي ، منشورات جامعة ابن زهر ، سلسلة رسائل وأطروحات ، اكادير، 1980م.
- العزفي ، دعامة اليقين في زعامة المتقين (مناقب الشيخ أبي يعزى) ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1989م.

- العمري (ابن فضل الله أحمد بن يحيى بن محلى بن دعجان ت 749 هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح/ مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988م، ص 137-138.
- الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي ت505هـ): الوسيط في المذاهب، تحقيق: أحمد محمود ابراهيم، دار السلام، القاهرة، ط1، 1417هـ.
- المراكشي (عبد الواحد ت 581 هـ): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، طبعة البيضاء ط7، 1978 م.
- المراكشي (عباس بن ابرهيم ت 1105هـ): الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ، المطبعة الملكية، الرباط، 1978م.
- المقري (أحمد بن محمد المقري التلمساني شهاب الدين ت 594هـ): أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الرباط، 1939م.
- المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ت 1040هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1983م.
- مؤلف مجهول (عاش في القرن 6 هـ): الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد ، طبعة البيضاء، دار النشر المغربية، 1985،
- مؤلف مجهول : مفاخر البربر ، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية ، دار أبي رقراق، القاهرة ، ط1، 2005م .
- ليون الافريقي (محمد بن الحسن ت حوالي 957هـ): وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 1 ، الرباط 1980.

- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد ت 1315هـ): الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، إعداد، محمد المغراوي، منشورات وزارة الثقافة ، المغرب ، ط3، 2005م
- الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى ت 914هـ): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط،1981م.

المراجع العربية والمعربة

- إبراهيم حركات: الحياة الاقتصادية في العصر المريني ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس، الرباط ، العدد 3-4 ، 1978.
- أحمد محمد الزرقا: شرح القواعد الفقهية، تنسيق ومراجعة: عبدالستار أبو غدة، دار القلم، دمشق، ط2، 1409هـ/ 1989م.
- ألفاريز دي مورااليز: البيمارستانات والمستشفيات، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، تقديم إسماعيل سراج الدين و آخرون، مكتبة الاسكندرية، 2007م.
- جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين في اسبانيا، ترجمة: محمد تقي الدين الهلالي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار اللؤلؤة، بيروت، 1994م،
- سامية مصطفى مسعد ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط1 ، 2003م .
- سحر عبد العزيز سالم: مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي منذ نشأتها حتى نهاية عصر بني مرين ، مؤسسة سباب الجامعة الإسكندرية ، ط1، 1966م.
- عبدالرحمن جبرة: الإسلام والبيئة، دار السلام، القاهرة، 2000م.

- عبدالمنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو لمصرية، القاهرة، 1963م،
- عز الدين عمر موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2، 1424هـ/ 2003م.
- عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، دار الغرب الإسلامي، ط1، الأولى، 1988م.
- مارمول كربخال: إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، وآخرون، طبعة المعارف الجديدة، دار المعرفة، بيروت، 1986م.
- مانويل جوميث مورينو: الفن الإسلامي في اسبانيا، تر: عبدالعزيز سالم و لطفي عبد البديع، مراجعة: جمال محرز، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1978م.
- محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس خلال لعصر المريني ، دار القلم، الكويت، ط2، 1987م، ص 321.
-
- محمد عبدالستارعثمان: المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 18، الكويت، آب 1988.
- محمد المنوني: أبحاث مختارة، منشورات وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، 2000م.
- الكاوني: آسفي وما إليه قديما وحديثا ، طبعة مصر ، 1953.
- كمال السيد أبو مصطفى: محاضرات في تاريخ الغرب الإسلامي وحضارته المغرب والأندلس ، مركز الاسكندرية ، الأزرايطة ، 2007 م.

- كونسيبسيو فاز كويز دي بنبيتو: الطروحات الطبية واللاتينية وغيرها في القرن الرابع عشرالميلادي، ترجمة حاتم الطحاوي، ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، تقديم إسماعيل سراج الدين و آخرون، مكتبة الاسكندرية، 2007م.

الرسائل الجامعية

- عبدالرحمن بن صالح الأطرم: ابن الرَّامي البناء(الإعلان بأحكام البنيان)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، الرياض، 1403هـ، 301-303.

المجلات العربية

- جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين في اسبانيا، ترجمة: محمد تقي الدين الهلالي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار اللؤلؤة، بيروت، 1994م،
- ليبوليدو توريس بلباس: الأبنية الإسلامية الأندلسية، ترجمة: علية إبراهيم العناني، تقديم : محمود علي مكي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، اسبانيا، العدد الأول ،1953م، ، المجلد الأول.
- هناء فهمي أحمد عيسى: حماية الشريعة الإسلامية للبيئة الطبيعية دراسة فقهية مقارنة، مجلة كلية الشريعة والقانون بطنطا، مصر، العدد 23، 1918م.

المراجع الأجنبية References

- Allain(ch); Reconnaissances archeologiques dans le massif des Rehamn Bahira et la dans Hesp,1954.
- Brett,(M) : Ifriqia as amarket for Saharan rtade from the tenth to twelth century A.D. journal of Africa history , vol.x(1960 .
- Deverdun(G); Marrakech des origins ,et techniques Nord Africaines , Rabat, 1912.
- Emmanuel Dufourcq;La vie quotedienne dans L Euroupe sous La domination arab,Paris,1978.
- Vovell(Michel);La mort et l occident de nos jours, editions Callimard et Panth eons,Paris 1983.
- Jean Thévenot: Relation d'un voyage fait au Levant, vol. I, à Paris, chez Louis Bilaine, M. DC. LXIIII, avec Privilege du Roy, 1663.
- Provençal ; (E.Lévi) «Histoire de l'Espagne Musulmane ; le siècle de califat de Maisonneuve et larose ;paris ;1999.

متطلبات الزواج والسن المناسب له في ظل المنعكسات الاقتصادية للحرب على سورية

دراسة ميدانية على عينة من سكان حي الرميلة في مدينة جبلة

[1]*أ. د. إيفا خرما [2]**أ. د. مدى شريقي [3]***ذكريا عباس

ملخص

هدفت هذه الدراسة إلى معرفة مدى تأثير المنعكسات الاقتصادية التي أفرزتها الحرب على سورية في قدرة الشباب على الزواج، وتأثير الحرب _من وجهة نظر المبحوثين_ في تغيير السن عند الزواج الأول. كما هدفت الدراسة إلى معرفة على السن المناسب لزواج الشاب والفتاة، وأهم المتطلبات التي لا يمكن التخلي عنها لإتمام الزواج.

ومن أجل ذلك قام الباحث بتصميم دليل مقابلة يعكس طبيعة التساؤلات المنبثقة عن مشكلة الدراسة، وإجراء دراسة ميدانية شملت (30) مبحوثاً ومبحوثة من سكان حي الرميلة في مدينة جبلة، لاستطلاع آرائهم حول الظاهرة المدروسة.

وخلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج كان أبرزها:

*أستاذ مساعد – قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سوريا.
**أستاذ مساعد – قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سوريا.
*** طالب دكتوراه- قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سوريا.

_ أن الحرب أثرت بشكل مباشر في تأخير الزواج، ورفع متوسط السن عند الزواج الأول لدى الجنسين وإن كان ذلك أكثر وضوحاً لدى الذكور منه عند الإناث.

_ رفض معظم المبحوثين التخلي عن السكن الزوجي المستقل لإتمام الزواج، مع تأكيد النصف منهم أنه لا فرق سواء كان ملكاً أو إيجاراً.

_ تأكيد معظم المبحوثين على أهمية وجود دخل ثابت بغض النظر إن كان كافياً أو لا كون وجوده يمنح شعور الأمان والاستقرار للأسرة.

كلمات مفتاحية: سن الزواج، متطلبات الزواج، المنعكسات الاقتصادية، تأخر الزواج، الحرب على سورية.

abstract

This study aimed to identify the extent of the economic repercussions that resulted from the war on Syria on the ability of young people to marry, and to identify the impact of war - from the respondents' point of view - on changing the age at first marriage. The study also aimed to identify the appropriate age for marriage for a young man and a girl, and the most important requirements that cannot be abandoned for the completion of marriage.

For this purpose, the researcher designed an interview guide that reflects the nature of the questions emanating from the study problem, and conducted a field study that included (30) male and female respondents from the residents of Al-Rumaila neighborhood in the city of Jableh, to explore their views on the studied phenomenon.

We came to a set of results, the most important of which are:

-The war directly affected delaying marriage and raising the average age at first marriage for both sexes, although this was more evident for males than for females.

-most of the respondents refused to give up the independent marital residence to complete the marriage, with half of them confirming that there is no difference whether it is property or rent.

- most of the respondents stressed the importance of having a stable income, regardless of whether it is sufficient or not, because its presence gives a sense of security and stability to the family.

Key words: marriage age, marriage requirements, economic repercussions, delayed marriage, the war on Syria.

المقدمة

يعد الزواج مؤسسة اجتماعية تقوم بشكلها الطبيعي على تفاهم مشترك بين رجل وامرأة بعد اتخاذ قرار الارتباط وتكوين أسرة، وفق عادات وقيم، وتصورات جمعية يقرها المجتمع، وتتحدد بموجبها الأدوار والمسؤوليات والوظائف البيولوجية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية والتربوية والأخلاقية لأفرادها، بدءاً من إشباع الحاجات الجنسية بطرق يرضى عنها المجتمع، وانتهاءً بإنجاب الأطفال وتنشئتهم. من هنا اكتسب الزواج طابعاً قدسياً، وحظي بأهمية كبيرة في حياة الأفراد ذكوراً وإناثاً على مر العصور.

تعرض الزواج لتبدلات وتغيرات عبر مراحل التاريخ من حيث شكله ونظمه، ومضمون أهدافه ومتطلباته الاجتماعية والاقتصادية، وطرق اختيار الشريك. خاصةً مع الانتقال من المجتمعات التقليدية التي اتسمت معظمها بسيطرة الأفكار الدينية، إلى المجتمعات الحديثة التي اتسمت بالتطور التكنولوجي والصناعي، وشيوع أنماط الاتصال الجنسي بموازاة الزواج أو كبديل عنه. هذه التطورات المادية والتغيرات الاجتماعية والقيمية التي شهدها العالم باتت تنسحب على مجتمعنا السوري خاصةً بصدد الزواج الذي تعرض في سورية كغيرها من البلدان العربية لتغيرات عديدة في العقود الأخيرة من حيث متطلباته وعاداته وأغراضه وطرق اختيار الشريك، والسن المناسب له وإن كانت درجة هذا التغير وشدته تختلف بين المدن والأرياف تبعاً لاختلاف خصائصها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربوية والسكانية.

لا شك أن واقع الزواج واتجاهات الشباب نحوه تأثرت بهذه التغيرات قبل الحرب كما يؤكد العديد من الباحثين والدارسين أمثال" جلال السناد" لكنَ التداعيات السلبية للحرب التي اندلعت على سورية منذ عام 2011 اجتماعياً واقتصادياً وأمنياً وديموغرافياً فاقمت الأمور، وأدخلت مزيداً من التغيير بما يتعلق بالزواج والإقبال عليه خاصةً مع معاناة معظم السوريين بمن فيهم الشباب على اختلاف انتماءاتهم وأوضاعهم من هذه التداعيات.

1- مشكلة البحث وأسئلته

1-1 – مشكلة البحث

شكلت الحرب بما أحدثته من قتل، وعنف وتشريد، وتدمير البنى التحتية، وتهجير، وفقر؛ عامل إحباط عطل قدرة الشباب الإنتاجية وحدَ من إمكانية تحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وجعل من فكرة الزواج وتكوين أسرة وإشباع جانب حيوي مرتبط بخصوصيتهم الجسدية وفقاً للعادات والتقاليد أمراً غير ممكن تحقيقه للكثير منهم؛ فنفقات الزواج وتكاليفه قبل الحرب لا تقارن بنفقاته وتكاليفه اليوم حيث ارتفعت تكلفة الزواج إلى حد كبير ما دفع البعض للتخلي عن بعض متطلبات الزواج لإتمامه، في حين ذهب البعض الآخر لتأخيره أو الإحجام عنه، خاصةً في ظل غلاء المعيشة وصعوبة تأمين السكن، وعدم تناسب مستوى الدخل مع تكاليف الزواج، واضطرار الشباب إلى العمل سنوات طويلة لتأمين متطلبات الزواج التي ارتفعت بشكل كبير في ظل الحرب.

1-2- أسئلة البحث

سنحاول في هذا البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1- هل كان للحرب تأثير مباشر في تغيير سن الزواج من وجهة نظر المبحوثين؟
2- ما هو السن المناسب لزواج كلٍ من الشاب والفتاة من وجهة نظر المبحوثين؟
3- ما هي المتطلبات التي تعد ضرورة ولا يمكن التخلي عنها لإتمام الزواج من وجهة نظر المبحوثين ؟

2- أهمية البحث

تتأتى أهمية البحث من كونه يسلط الضوء على المواقف القائمة اليوم في ما يخص الزواج الذي يعد الخطوة الأولى في طريق تكوين الأسرة، وتحقيق الاستقرار الاجتماعي والنفسي والاقتصادي والعاطفي لكل من الشاب والفتاة المقبلين عليه، خاصةً إذا بني الزواج على أسس سليمة تساعد في إنجاب أطفال، وتنشئتهم تنشئة اجتماعية صحيحة تسهم في العمل على تطوير المجتمع وتحقيق استقراره.

3- أهداف البحث

يهدف البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف تتجلى بـ:

1- تعرف مدى تأثير الحرب في تغيير سن الزواج من وجهة نظر المبحوثين.

2- الكشف عن السن المناسب لزواج كلٍ من الشاب والفتاة من وجهة نظر المبحوثين.

3- الكشف عن المتطلبات التي تعد ضرورة ولا يمكن التخلي عنها لإتمام الزواج من وجهة نظر المبحوثين.

4-المفاهيم والمصطلحات

أ. الحرب: هي المواجهة العسكرية تتم لفترة طويلة أو قصيرة عبر استخدام قوات مسلحة بين طرفين أو أكثر بغية تحقيق أهداف ومكاسب معينة؛ وتسفر عن ضحايا بشرية ومادية وطبيعية. (سبيلا؛ الهرموزي، 2017، 197)

ب. الزواج: "مؤسسة اجتماعية مهمة لها نصوصها وأحكامها وقوانينها التي تختلف من حضارة إلى أخرى، ويبرز وجودها المجتمع، وتستمر فترة طويلة من الزمن يستطيع خلالها البالغان إنجاب الأطفال، وتربيتهم تربية اجتماعية ،أخلاقية ودينية يقرها المجتمع ويعترف بوجودها وأهميتها". (ميتشيل، 1981، 138)

ج. سن الزواج: يحدد قانون الأحوال الشخصية في سورية سن الثامنة عشرة لزواج كل من الشاب والفتاة، كما أجاز القانون زواجهما في عمر السادسة عشر سنة إذا تحقق الرضا والاختيار وفق تعليمات يصدرها قاضي القضاة.(قانون الأحوال الشخصية السوري، 2019)

د. متطلبات الزواج (إجرائياً): هي جملة من الحاجات والمراسم اللازمة لإتمام الزواج، وتتمثل الحاجات بوجود السكن والدخل وأثاث المنزل، في حين ترتبط المراسم بإقامة حفل الزفاف، وشراء جهاز العروس والمصاغ الذهبي والمهر وفستان الزفاف، وغيرها من هذه الأمور.

هـ. المنعكسات الاقتصادية (إجرائيا): هي جملة التغيرات والتحولات الاقتصادية التي شهدتها سورية منذ اندلاع الحرب في عام 2011 والتي تركت آثاراً مختلفة في قدرة أفراد المجتمع على الزواج وتكوين أسرة. كغلاء المعيشة، ضعف الأجور، تضخم العملة، ضعف قدرتها الشرائية، ارتفاع ثمن البيوت وتجهيزات الزواج، ارتفاع أجور السكن.

5-الدراسات السابقة

حظي موضوع الزواج باهتمام الباحثين والدارسين على اختلاف اختصاصاتهم العلمية فكتبت العديد من الدراسات العلمية الجادة على المستوى المحلي والعربي والأجنبي التي تناولت الموضوع من نواحٍ مختلفة، وقد اخترنا تقديم بعض هذه الدراسات بما يتوافق مع موضوع البحث الحالي.

1- تأخر سن الزواج لدى الشباب الجامعي (دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة دمشق)، السناد، 2007.

هدف الباحث في دراسته الكشف عن أسباب تأخر سن الزواج كما تراها عينة من طلبة كليتي التربية والهندسة المدنية في جامعة دمشق بلغ عددها(400) طالبة

وطالباً. كما هدف إلى معرفة الفروق الفردية بين أفراد العينة تبعاً لمتغيرات البحث: الجنس، السنة الدراسية، الكلية. من خلال الإجابة على التساؤل الرئيس الآتي: ما أسباب تأخر سن الزواج كما تراها عينة من طلبة جامعة دمشق في كليتي التربية والهندسة المدنية؟

توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج كان أهمها أن أفراد العينة يعطون الأهمية الكبرى لمشكلة السكن وغلاء الإيجار، يلي ذلك أنهم يرون أن الزواج قسمة ونصيب، وارتفاع تكاليف المعيشة والحياة، وفقدان الوالدين والاضطرار لتحمل مسؤولية الأسرة، وعدم رغبة الزوجة السكن مع أهل الزوج، غلاء المهور، مواصلة التحصيل العلمي، مستوى الدخل المنخفض للزوج.

2- زواج القاصرات في الأسرة الريفية المهجرة، سرور، 2016.

تناولت الباحثة تزايد ظاهرة تزويج القاصرات في ظل الأزمة السورية في أوساط الأسر الريفية المهجرة. وانطلقت في دراستها من عدة تساؤلات أهمها ما أسباب زواج القاصرات في ظل الأزمة السورية؟ وهل كان التهجير سبباً رئيسياً في تزويج القاصرات؟ وما رأي الفتاة القاصر بزواج القاصرات؟

هدفت الباحثة من دراستها الوقوف على أسباب ظاهرة زواج القاصرات في الأسرة الريفية المهجرة. التعرف على الخصائص المرتبطة بالتعليم، والعمل، والمستوى الاقتصادي للأسرة التي تنتمي لها القاصر. التعرف على الظروف التي أفرزتها الأزمة السورية والتي أدت بدورها إلى تزايد زواج القاصرات. استخدمت الباحثة في تحقيق أهدافها المنهج الأثنوغرافي.

بلغ عدد أفراد العينة (57) سيدة تزوجن بعمر القاصر أي تحت الـ18 عام، ولم يمض على زواجهن أكثر من (4) سنوات. وتنتمين لأسرة ريفية مهجرة، وتعيش حالياً في مدينة دمشق. استخدمت الباحثة في جمع البيانات دليل البيانات المعمقة، وتم تحليل هذه البيانات باستخدام برنامج الاحصاء الـ (spss). توصلت الباحثة إلى العديد من النتائج كان أهمها: أن الأزمة السورية كانت عاملاً مؤثراً في تزويج القاصرات، فبسبب الأزمة تدنى المستوى الاقتصادي للأسرة الريفية المهجرة، مما أدى إلى اتخاذ قرار بتزويج الفتيات الموجودات ضمن الأسر، رغبةً من الأسرة بتخفيف الأعباء الاقتصادية، وتأمين حياة أفضل للفتاة في ظل هذه الظروف الاستثنائية التي يعيشها المجتمع السوري.

تعاني الفتيات القاصرات من أعباء في دورهن الأسري نظراً إلى عدم قدرتهن على القيام بمسؤوليات الزواج بسبب عدم تأهيلهن الأسري لهذا الدور الاجتماعي، مما انعكس بدوره على مدى رضاهن عن تجربة زواجهن.

3_ أسباب عزوف الشباب عن الزواج، لبرش، 2017.

تناولت الباحثة أسباب عزوف الشباب المثقف عن الزواج في الجزائر مركزةً على الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كالبطالة، أزمة السكن، غلاء المهور، وتغير نظرة الشباب للحياة الزوجية.

هدفت الباحثة إلى التعرف على أسباب عزوف الشباب عن الزواج ، سواء كانت أسباب هذا العزوف اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية، وكذلك معرفة إن كان السبب فرضته الظروف أم هو اختياري.

استخدمت الباحثة المنهج الوصفي، وتمّ اختيار العينة بالطريقة القصدية والعرضية، وقد كانت العينة صغيرة مقارنة بحجم مجتمع البحث حيث تكونت من (50) مفردة من أصل (3242) موظف (إداري وأستاذ). كما استخدمت الباحثة أداة المقابلة والملاحظة.

توصلت الباحثة إلى مجموعة من النتائج أهمها: ظهور متطلبات جديدة للزواج لم تكن سابقاً كقيمة المهر وأزمة السكن التي تبقى العائق الأكبر أمام الشباب المقبل على الزواج، ويدفع به إلى العزوف عنه.

كما توصلت الباحثة إلى ظهور قيم جديدة نتيجة التغيرات التي طرأت على المجتمع الجزائري، وأدى إلى طرق جديدة للتعارف. وهذا يؤكد أن هناك ظاهرة مخيفة تهدد استقرار المجتمع، وهي العزوف عن الزواج لدى الفئة المثقفة. والعزوف عن الزواج لم يعد إجبارياً فقط إنما أصبح أيضاً اختيارياً.

الدراسات الأجنبية:

1_ PREM C. SAXENA, ANDRZEJ KULCZYCKI and ROZZET JURDI, Nuptiality Transition and Marriage Squeeze in Lebanon Consequences of Sixteen Years of Civil War, 2004.

- بريم ساكسينا، أندريه كولكزيكي، روزيت جردي، ضغط الزواج في لبنان تداعيات 16 عاماً من الحرب الأهلية، 2004.

للدراسة العديد من الأهداف أهمها:

1- التعرف على نسبة العزاب. 2- تقدير متوسط العمر عند الزواج والفوارق في متوسط العمر عند الزواج الأول.3- هدفت أيضاً الكشف عما إذا كان للحرب أي تأثير كبير في سن الزواج في لبنان.

تناولت الدراسة اتجاهات وأنماط الزواج في لبنان باستخدام بيانات مسح السكان والمساكن لعام 1996 الذي أجرته وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بالتعاون مع صندوق الأمم المتحدة للسكان. شملت العينة 64472 أسرة وكانت العينة عنقودية طبقية واسعة النطاق.

قارنت الدراسة بين نسب الزواج في أربع فترات زمنية محددة لتحليل الزيجات فيها هي قبل الـ / 1959/،/ 1958 -1974/، /1975-1989 /،/ 1990-1997/. وذلك للتحقق عما إذا كان للحرب الأهلية أي تأثير على سوق الزواج في لبنان.

أكدت الدراسة أن الحرب الأهلية خلقت اضطرابات كبيرة في سياق الزواج، ومع ذلك لم يتم تقديم أي بيانات عن اتجاهات وأنماط الزواج خلال العقود الأخيرة. وضغط الزواج عند الإناث أكبر منه عند الذكور وذلك لعجز الذكور المؤهلين للزواج. ومن المتوقع حدوث تغييرات في عادات الزواج بمعنى قد تتغير الفروق العمرية والتعليمية بين الزوجين. وهجرة الشباب الذكور شكلت ضغطاً أكبر على الإناث اللواتي اضطررن إلى تأخير الزواج.

بالرغم من أن سعي الإناث إلى مستويات تعليمية أعلى يؤدي إلى تأخرهن في السن عند الزواج الأول، فلا يوجد خطر من الوقوع في العزوبة.

التعقيب على الدراسات السابقة:

بعد استعراض الدراسات السابقة يلاحظ أن الدراسة الأجنبية التي وقعنا عليها كانت أكثر تناولاً لتأثير الحرب في واقع الزواج، فدراسة **أندريه كولكزيكي، بريم ساكسينا، روزين جردي** "ضغط الزواج في لبنان تداعيات 16 عاماً من الحرب الأهلية" تتفق مع دراستنا الحالية بأكثر من نقطة لا سيما بتناولها لتأثير الحرب في تغيير السن عند الزواج الأول وبمعدلات الزواج. في حين لوحظ ندرة الدراسات العربية التي تناولت أوضاع الزواج في ضوء الحرب فبإستثناء دراسة الدكتورة "عبير محمد سرور" التي حملت عنوان "زواج القاصرات في الأسرة الريفية المهجرة " لم نقف على أية دراسة عربية تناولت تأثير الحرب في واقع الزواج سواء كان في سورية أو في البلدان العربية الأخرى.

6- الإطار النظري: المنعكسات الاقتصادية للحرب على الزواج في سورية

خلقت الحرب التي اندلعت على سورية منذ عام / 2011/ جملة من المشكلات الاقتصادية التي أثرت في قدرة السوريين على تأمين متطلبات الحياة المعيشية، وكان لهذه المشكلات تأثير مباشر في قدرة الشباب على الإقبال على الزواج وتأمين متطلباته، وسنتوقف هنا عند أبرز هذه المشكلات (كالفقر، أزمة السكن، البطالة والهجرة الخارجية).

6-1- الفقر

عرفت سورية قبل الحرب معدلات نمو اقتصادية جيدة بمعدل نمو وسطي يبلغ ما يقارب (4.45 %) خلال الفترة الواقعة بين العامين /2001 / و /2010 / (صندوق الأمم المتحدة للسكان مركز الاستجابة الإقليمية للأزمة السورية، 2016، 12)، الأمر الذي أدى إلى تحسن الأوضاع الاقتصادية المعيشية لمعظم السوريين آنذاك، حيث استطاعت الدولة توفير الخدمات الأساسية بشكل مجاني أو شبه مجاني في مجالات الصحة والتعليم والطاقة ...الخ، ولم يعان السوريون في تلك الفترة من نقص بالمواد الغذائية والسلع الضرورية بفضل الدعم الذي كانت تقدمه الدولة لمواطنيها. وتشير الدراسات الاقتصادية إلى أن معدلات الفقر في سورية كانت الأدنى بين الدول العربية قياساً بمستوى الإنفاق الفردي في كل بلد ويظهر هذا أن معدلات الفقر في سورية أدنى مما هو متوقع بناء على مستوى دخل الفرد، وكمثال على ذلك تتمتع مصر بمستوى مشابه من حيث دخل إنفاق الفرد كما هو عليه الحال في سورية ولكن مع ذلك فإن معدل الفقر فيها يبلغ الضعف تقريباً

(المركز السوري لبحوث الدراسات، 23) ومرد ذلك يعود إلى انخفاض أسعار السلع، والخدمات في سورية إلى درجة أن مواطني الدول المجاورة كلبنان والأردن ..الخ كانوا قبل الحرب يفضلون المجيء إلى سورية لشراء حاجياتهم من سلع ومواد غذائية وغيرها بسبب جودتها وانخفاض ثمنها قياساً بما هو في بلدانهم.

ومع اندلاع الحرب على سورية عام/ 2011/ ظهرت مجموعة من المشكلات الاقتصادية بفعل التخريب الممنهج للمنشآت، والمدن الصناعية، وتدمير البنية التحتية، وتراجع النمو الاقتصادي، وتوقف الاستثمارات وهروب رؤوس الأموال إلى الخارج، ونهب الثروات الطبيعية، وخروج كثير من حقول النفط والغاز عن العمل في مناطق القتال، وانخفاض الصادرات مقابل زيادة الواردات وضعف الاحتياطي النقدي من القطع الأجنبي، وضعف القدرة الشرائية لليرة السورية وارتفاع «معدلات التضخم إلى أرقام قياسية تبلغ (57.3%) في سورية مع انتهاء الربع الأول من عام 2013» (صندوق الأمم المتحدة للسكان مركز الاستجابة الإقليمية للأزمة السورية، 2016، 14) وفرض حزم متتالية من العقوبات الخارجية، وتقدر الخسائر التي تكبدها الاقتصاد السوري في عامي/ 2011/ و /2012/ " بـ (24.1) مليار دولار أمريكي والذي يشكل حسب الأسعار الثابتة لعام 2000 حوالي (81.7%) من الناتج المحلي الإجمالي لعام 2010 ، وتوزعت الخسائر الكلية إلى (50%) كخسارة في الناتج المحلي الإجمالي، (43%) خسارة مخزون رأس المال المتضرر (7%) خسارة ارتفاع الانفاق العسكري" (المركز السوري لبحوث السياسات، 43).

هذا الواقع الاقتصادي المأزوم الذي خلقته الحرب انعكست تداعياته السلبية على الحياة المعيشية للسوريين، ويتجلى ذلك في ارتفاع نسب الفقر وغلاء المعيشة وانخفاض مستوى الدخل ونقص فرص العمل وخسارة الوظائف، ففي عام / 2015 / على سبيل المثال شهد السوريون ارتفاعاً كبيراً في تكاليف المعيشة، والزيادة في أسعار السلع والخدمات الذي انعكس مزيداً من التدهور في معيشة الأسر، ولاسيما الأسر الأشد فقراً، حيث بات الكثير من السوريين عاجزين عن تلبية الحاجات الأساسية في الحياة اليومية أو غير قادرين على إشباعها بالحد الأدنى، « (30 %) من السكان تراجعوا إلى حالة من الفقر المدقع حيث تكافح الأسر لتلبية الاحتياجات الغذائية الأساسية للاستمرار في الحياة » (صندوق الأمم المتحدة للسكان مركز الاستجابة الإقليمية للأزمة السورية، 2016، ص14) وتؤكد الدراسات أن هذه النسب تزداد أكثر فأكثر مع استمرار الحرب "حيث بلغت نسبة السكان الذين يعيشون على أقل من(1.90) دولار في اليوم، حسب التقديرات، (40) في المائة من مجموع السكان في عام /2019/. ويمثل هذا ارتفاعاً حاداً في معدلات الفقر المدقع مقارنة بمستويات عام /2010/، التي لم تتجاوز تقديراتها واحداً في المائة. واستناداً إلى خط الفقر مقيساً بالعيش على (3.50) دولار، الذي هو أكثر اتساقاً مع قيمة ما قبل النزاع في الجمهورية العربية السورية، كان معدل الزيادة مقارنة بمستويات عام /2010 / أكثر من (400) في المائة، إذ بات قرابة (77) في المائة من السكان يعيشون تحت هذا الخط في عام /2019 / (سورية: بعد ثماني سنوات من الحرب، 38)

هذه الضغوط الاقتصادية والضائقات المادية تحدث «اضطرابات في أساليب المعيشة وطرق السلوك المألوفة، وخاصة حين يحدث اختلال التوازن بين متطلبات وحاجات الأسرة، وبين الموارد اللازمة لتحقيق هذه المطالب والحاجات» (بلميهوب، 2010، 91)، ولا شك أن التردي غير المسبوق للأوضاع الاقتصادية في حياة أفراد المجتمع السوري أثر بشكل مباشر في قدرة الشباب على إتمام الزواج، وفي السن الذي يستطيع الشاب والفتاة الزواج فيه للمرة الأولى في حياتهم، وفي القدرة على تكوين الأسرة وإنجاب الأطفال. خاصةً مع محدودية الدخل وضعف الأجور التي يتلقاها العاملون في مختلف مجالات العمل حيث لا يتجاوز أعلى راتب لموظف حكومي الـ (200 ألف ليرة سورية) وحتى الذي يعمل في القطاع الخاص أو الأعمال الحرة ويصل دخله إلى ضعف هذا المبلغ أو ضعفيه أو ثلاثة أضعافه فإنه يكاد لا يكفي نفقات الزواج وتكاليفه، فعلى سبيل المثال إن سعر البراد أو الغسالة التي تعتبر من الحاجات الضرورية لأي منزل يحتاج لأكثر من مليون إلى مليوني ليرة سورية، وهذا ما يعادل دخل الموظف لحوالي العام. وحتى مع تخلي عدد كبير من الفتيات وأسرهن وتنازلهن عن بعض متطلبات الزواج التي كان من اليسير على الشباب تأمينها قبل الحرب كالمصاغ الذهبي وحفل الزفاف والمهر، وغيرها إلا أنه يبقى من الصعب على الكثير من المقبلين على الزواج تأمينها.

وعلى الرغم من عدم توفر بيانات إحصائية دقيقة حول نسبة العزوبية ومتوسط السن عند الزواج الأول لدى الشباب السوري، يمكن القول إن المشاهدات العامة تؤكد عزوف الكثير من الشباب وتخليهم عن فكرة الزواج خاصةً في شريحة

المتعلمين الذين يبلغون من العمر الثلاثينيات والأربعينيات ولم يقدموا على خطوة الزواج بعد لعدم قدرتهم على تأمين متطلباته.

6-2- أزمة السكن

أصبحت أزمة السكن في سورية واضحة في فترة الحرب، ويعود ذلك إلى تعرض الكثير من الأبنية السكنية للدمار، وتوقف الكثير من المشاريع الإسكانية، وارتفاع أسعار المساكن بطريقة تفوق الخيال، وعلى حد تعبير بعض المحللين الاقتصاديين في برنامج المسائية على (شام إف إم) وفي برنامج مع الحدث على إذاعة دمشق، أن أسعار العقارات في سورية أصبحت من الأعلى في العالم إلى درجة أنه في بعض المناطق بالعاصمة دمشق باتت أسعار المساكن أعلى من مثيلاتها في باريس ولندن، وأن أقل مسكن تبلغ مساحته (60) متراً مربعاً يتجاوز سعره الـ (25) مليون ليرة ما يجعل إمكانية شراء المسكن حلماً صعب المنال لمعظم الشباب السوري، ولو حاول الشباب الادخار لسنوات عديدة فإن الأمر لم يعد ذا جدوى، خاصةً مع ارتفاع تكاليف المتر المربع للمسكن عشرات الأضعاف عن ذي قبل.

يعتبر توفير السكن من أهم المشكلات التي تعيق إمكانية الزواج، وخاصةً أن معظم الشباب باتوا يفضلون العيش في مسكن مستقل عن الأهل بعد الزواج، وذلك تفادياً للمشكلات العائلية من جهة، ومن جهة أخرى فإن صغر حجم السكن في المدن يفرض على الأبناء العيش مستقلين عن الأهل. وقد لا يستطيعون شراء السكن المناسب فيلجؤون إلى خيار الإيجار، وتبدأ رحلة التنقل والترحال من منزل

إلى آخر، أي تغيير السكن أو البقاء في المسكن ذاته شريطة الموافقة على رفع قيمة الإيجار الذي يبدأ صاحب العقار المطالبة به مع اقتراب انتهاء المدة المتفق عليها في العقد، والأمر يزداد سوءاً خاصة في المناطق والمدن التي وفد إليها المهجرون والنازحون من المناطق الساخنة خلال الحرب. ما جعل أصحاب البيوت يرفعون سقف الأجور بطريقة لا تتناسب مع مستويات الدخل لدى الناس، وعلى وجه التحديد الموظفين الذين يدفعون أكثر من نصف راتبهم لاستئجار مسكن ليتآووا فيه، في حين يذهب البعض الآخر من الشباب للبناء العشوائي خاصةً في أطراف المدن والأرياف فيقومون ببناء مسكن صغير لا يتجاوز غرفة أو غرفتين في أحسن الأحوال لأنه يتعذر على الشاب في الظروف الراهنة إنجاز متطلبات الأسرة، وأهمها المسكن الملائم إلا بعد ما يقضي فترة طويلة في العمل من أجل توفير هذا المطلب.

4- 3- البطالة

تعتبر البطالة مشكلة اقتصادية اجتماعية تعكس وضعاً سلبياً للاقتصاد، وتعبر عن عجزه عن استيعاب «كل قادر على العمل وراغب فيه وباحث عنه ويقبله عند مستوى الأجر الأدنى السائد ولا يجده» (عجلان، 2008، 41) وهذا مرده إلى تقلص سوق العمل وضعف النمو الاقتصادي وتوقف الاستثمارات، ما يؤثر سلباً في إمكانية استحداث فرص عمل جديدة في مختلف القطاعات الصناعية والزراعية والسياحية.

وبالرغم من أن نسبة البطالة حافظت على معدل ثابت في سورية «والذي يقع دون المعدل الوسطي للمنطقة العربية على مستوى مستقر يبلغ ما يقارب (8%) خلال الفترة الواقعة بين /2003 / و /2010/ كما بيَن تقرير التحديات التنموية في الدول العربية /2011/ (UNDP)، غير أن البطالة المستقرة ترافقت بانخفاض في معدلات المشاركة في قوة العمل وبضعف في معدلات خلق فرص عمل جديدة. (...) حيث لم يخلق الاقتصاد السوري سوى (400 ألف) فرصة عمل خلال العقد السابق للحرب بمعدل نمو سنوي يبلغ (0.9%) مما أدى إلى تراجع معدل التشغيل من (47%) في عام /2001/ إلى (39%) في العام / 2010/» (المركز السوري لبحوث السياسات، 2013، 21)، هذا الأمر زاد عدد المتعطلين عن العمل، وفاقم مشكلة البطالة، لا سيما مع دخول أعداد أكبر من خريجي الجامعات إلى سوق العمل سنوياً. ويلاحظ ارتفاع نسبة المتعطلين عن العمل بين الحائزين على شهادات التعليم الجامعي عن غيرهم من شرائح الشباب الأخرى.

إن ارتفاع معدل البطالة وانتشارها في أوساط الشباب الذين لا يجدون فرص عمل ثابتة يؤثر إذاَ سلباً على الأوضاع الاجتماعية للمتعطلين ومن حولهم، في ظل غلاء المعيشة وارتفاع أسعار السلع بشكل كبير، وتدهور القدرة الشرائية بشكل يولد لدى الشباب حالة من الإحباط لعجزهم عن بلوغ هدفهم في تحقيق الكفاية المادية، ويضعف إيمانهم بدور المؤسسات الرسمية والأنظمة والقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع بسبب شعورهم بالحرمان من أشياء كثيرة، وعجزهم بالتالي عن إشباع حاجاتهم الأساسية وإن كانت غير ملحة أو مستعجلة في الوقت الراهن خاصة مع

عدم قدرتهم تأمين نفقات الزواج، وتكوين أسرة وشراء مسكن، وغير ذلك من متطلبات الزواج.

وإن كان كلاً من الشاب والفتاة يبقى أسير المتطلبات المادية للزواج، ولكن تبقى النظرة التقليدية تحمل الشاب مسؤولية القيام بالأعباء الاقتصادية ما قبل الزواج وما بعده لتكوين الأسرة وإنجاب الأطفال، ما اضطر الكثير من الشباب لإيجاد أكثر من عمل دون أن يتناسب بالضرورة مع المؤهل العلمي والثقافي لهم، فالعبء الأكبر يقع على كاهلهم، في حين أن الفتاة وإن كانت متعلمة قد تكتفي برعاية شؤون المنزل، ورعاية الأولاد لعدم توفر فرصة عمل مناسبة لدورها الأمومي الذي يطلب منها بذل جهد أكبر بالالتفات لشؤون البيت، وإن كان لديها رغبة بالعمل لمساعدة الزوج في تحمل الأعباء المالية للأسرة التي دفعت معظم الشباب للتفكير بالارتباط بفتاة موظفة تعينه على الإنفاق لأنه حتى الدخل المتواضع الذي يتقاضاه العاملون من الشباب لا يمكنهم من تحمل متطلبات الزواج وما بعده، وهذا ما يدفع الكثير منهم إلى الإحجام عن الزواج أو اللجوء إلى الزواج العرفي على وجه التحديد في البيئات ذات الطابع الديني كحل وسيط يجنبهم الانزلاق بعلاقات جنسية غير مشروعة أو الارتباط بزواج دائم يحملهم أعباء ومسؤوليات غير قادرين على الالتزام بها. خاصةً وأن بعض الأسر لم تتفهم التغيرات الاقتصادية وما رافقها من تغيرات اجتماعية. فهي لا تزال تطلب ممن يتقدم للزواج من بناتها بمطالب يعجز في كثير من الأحيان عن تلبيتها. والغريب في الأمر أن هذه الأسر قد يكون لديها أبناء ذكور في سن الزواج ويجدون صعوبة في تأمين متطلبات الزواج وتأخذ على غيرها من الأسر مبالغتها في المطالب إلا أنها تقع في هذه الازدواجية،

لاسيما مع تدهور القوة الشرائية للعملة وغلاء المعيشة المتمثل بالارتفاع الكبير لأسعار السلع الضرورية ما جعل الزواج من كماليات الحياة لدى شريحة واسعة من الشباب السوري، خاصةً مع تدهور الوضع الاقتصادي لمعظم السوريين منذ اندلاع الحرب عام /2011/ في سورية، وازدياد نسبة الفقر والبطالة لمن هم في سن قوة العمل، حيث "ارتفعت معدلات البطالة من (14.9%) عام /2011 / إلى (57.7%) عام /2014/» (صندوق الأمم المتحدة للسكان مركز الاستجابة الإقليمية للأزمة السورية ، 2016، 13) وما زاد الأمر سوءاً في فترة الحرب تعرض الكثير من المنشآت والمعامل للسرقة والنهب والتدمير الأمر الذي أفقد الكثيرين عملهم، وأجبرهم على النزوح من مدنهم إلى مدن أخرى أو الهجرة إلى خارج البلاد بحثاً عن الأمن والأمان لتحقيق مستقبل أفضل لهم ولأسرهم.

6_4_ الهجرة الخارجية

أدت الحرب بما شهدته من عنف وأعمال قتالية دوراُ محورياً في زيادة عدد المهاجرين السوريين من مختلف الفئات والشرائح الاجتماعية والعمرية، وخاصةً الفئة الشابة منها حيث اندفع مئات الآلاف منهم بفعل الخوف والقلق والأوضاع الأمنية غير المستقرة إلى خارج البلاد لتأمين مستقبلهم وللبحث عن ظروف حياة أفضل اقتصادياً وأمنياً واجتماعياً وسواء تعلقت الأسباب الكامنة وراء هجرة الشباب بالهروب من الخدمة العسكرية، وتصوير الخروج من البلد على أنه الخلاص من جهة، أو لتحقيق طموح شخصي يرتبط بالوصول إلى تقدير الذات والحصول على بعض الامتيازات، وحريات البحث والتفكير والوصول إلى نمط عيش أكثر رفاهية، فقد شكلت هجرة هؤلاء خسارة كبيرة في رأس المال الاجتماعي أو الاقتصادي

سيترتب عليها مستقبلاً أضراراً يصعب تعويضها على الصعيد الإنتاجي خاصةً أن معظم المهاجرين من الشباب يقعون في سن قوة العمل، ويتمتعون بخصائص تعليمية ومهارات إبداعية مميزة وكفاءات علمية «وتشير الدراسات إلى أن نسبة السوريين المهاجرين الحاصلين على شهادة التعليم الجامعي العالي تتجاوز (35%) من إجمالي المهاجرين التي تحتاجهم سورية في مرحلة ما بعد الحرب. وهؤلاء ثروة وطنية فتية، إلى جانب كونهم كوادر وكفاءات وموارد بشرية وعلمية، يصعب على النظام التعليمي تعويض وتأهيل كوادر مماثلة في مدة قصيرة» (أبو حلاوة، 2018، 7). ناهيك عن الآثار الديموغرافية والاجتماعية الناجمة عن التفاوت بين أعداد المهاجرين من الذكور والإناث وما لذلك من تأثير مباشر في الحالة الزواجية من حيث معدل الزواجية، ومتوسط السن عند الزواج الأول حيث أن هجرة الشباب الذكور شكلت ضغطاً أكبر على الإناث اللواتي اضطرين إلى تأخير الزواج، وما تعانيه الفتيات في هذا الصدد ينسحب على الشباب؛ وإن بصورة مغايرة، فاضطرار الشباب إلى الهجرة خارج القطر بشكل دائم أو مؤقت للأسباب المذكورة أعلاه يدفع الكثير منهم إلى «الإحجام أو الانصراف عن الزواج كفكرة أو مشروع أو كدور اجتماعي وقد يكون العزوف استجابة إرادية لعوامل داخلية في شخصية الفرد أو استجابة قسرية لضغوط خارجية» (خليل، 2009، 9) وبعد تخطي الظروف والضغوط واستقرار أوضاعه يمكن أن يتزوج بفتاة من البلد الذي يقيم به أو يقوم بالبحث عن فتاة من خلال أهله المقيمين داخل البلد الأم أو عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وعندما يجد الفتاة المناسبة يوكل الأهل أو أحد الأقرباء أو الأصدقاء للقيام بإجراءات الزواج وأخذ العروس إلى البلد المقيم به،

وهذا يفسر ازدياد الحديث عن ارتفاع عدد عقود الزواج التي تتم بالوكالة في الآونة الأخيرة سورية.

بعد استعراضنا لبعض المشكلات الاقتصادية التي سببتها الحرب يمكن القول أن الظروف الاقتصادية التي يعيشها مجتمعنا السوري في فترة الحرب المتمثلة بغلاء المعيشة، وارتفاع أسعار السلع، وانخفاض الدخل وضعف الأجور وانتشار البطالة، وغلاء المساكن، والهجرة الخارجية حدَ من قدرة الكثير من الشباب على تأمين متطلبات الزواج، ما جعل تأخير الزواج خياراً إجبارياً إلا في حالات يتم فيها التخلي عن كثير من هذه المطالب، أو أن يكون للمحيطين كالأسرة مثلاً إسهاماً في توفير هذه المتطلبات.

7- إجراءات الدراسة الميدانية

تتضمن هذه الفقرة عرض الإجراءات التي اتبعناها في تطبيق دراستنا الميدانية، بدءاً بتحديد منهج الدراسة وانتهاءً بتحديد أسلوب العينة.

7-1- منهج الدراسة

اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي كونه الأنسب للحصول على المعلومات الكافية لفهم الظاهرة والعناصر المشكلة لها ودراسة التغير الذي طرأ عليها خلال الحرب.

7-2- طريقة الدراسة

اعتمدنا طريقة تحليل المضمون لتحليل البيانات الواردة في المقابلات حول موضوع الدراسة.

7-3- أداة الدراسة

اعتمدنا المقابلة المعمقة أداة لجمع البيانات، وهي الأداة الأكثر استخداماً في الأبحاث ذات التوجه الكيفي كونها تمكن الباحث من الحصول على معلومات متنوعة وأكثر تعمقاً حول الظاهرة المدروسة.

الصدق الظاهري لأداة الدراسة (صدق المحتوى):

تم اختبار صدق المحتوى لدليل المقابلة بالاستعانة بمجموعة من الأساتذة من أعضاء الهيئة التدريسية والمتخصصين في مجال علم الاجتماع، لأخذ آرائهم والإفادة من مخزونهم المعرفي وخبراتهم المتراكمة في مجال اختصاصاتهم والاستفادة من ملاحظاتهم في تعديل الدليل بما يتلاءم وأهداف البحث، ووفقاً لذلك أُخرج الدليل بصورته النهائية الحالية في ضوء الملاحظات التي أبدوها، ومدى ملاءمتها لأهداف البحث.

7-4- مجتمع البحث وعينته

حدد الباحث مجتمع البحث سكان حي الرميلة في مدينة جبلة. ويتصف الحي المذكور الواقع شمال مدينة جبلة بتنوع شرائحه الاجتماعية، واختلاف أوضاعهم الاقتصادية وتباين مستوياتهم الثقافية والتعليمية.

كما تم تحديد حجم العينة بـ (30) مبحوثة ومبحوث من قاطني هذا الحي. ويعود السبب في تحديد هذا الحجم من العينة إلى اعتمادنا على المقابلة المعمقة كوسيلة لجمع البيانات. وأثناء إجراء المقابلات توضح لنا أن العدد كافٍ بالفعل، والسبب في ذلك هو الوصول إلى نقطة التشبع بالمعلومات ، بمعنى أن المبحوثين في المقابلات الـ5 الأخيرة لم يضيفوا جديداً على من سبقهم، ومن ناحية ثانية إن حجم العينة الصغير كان متناسب مع طبيعة دراستنا الاستطلاعية بغرض التركيز والتعمق في تحليل البيانات، وتوصيف الظاهرة المدروسة، وتوضيح معالمها للخروج بنتائج تؤسس لفرضيات تبنى عليها دراسات لاحقة من قبل الباحث أو باحثين آخرين.

7-5- أسلوب اختيار العينة

اعتمدنا في اختيارنا للعينة على أسلوب العينة المتاحة (الميسرة) التي يتم بها الالتقاء بأفراد العينة مصادفةً، وتعتبر من العينات المناسبة للدراسات الاستطلاعية، حيث «يختار الباحث عدداً من الأفراد الذين يقابلهم صدفةً دون تخطيط مسبق» (دياب، 2003، 99)، ويوافقون على المشاركة وإعطاء البيانات، ويستخدم هذا النوع من العينات عند جمع بيانات استكشافية حول موضوعات معينة كموضوع دراستنا الحالي.

8_نتائج الدراسة

8-1 نتائج الإجابة عن السؤال الأول حول تأثير الحرب على سورية في تغير السن عند الزواج الأول

تبين بعد تحليل أجوبة المبحوثين حول سؤال تأثير الحرب في تغير سن الزواج أن (70%) منهم رأوا بأن الحرب أدت إلى تأخير سن الزواج، في حين أن (13.4%) منهم قالوا بأن التأخير كان فقط عند الشباب، وذهب (10%) للقول بأن الحرب لم تؤثر في تغيير سن الزواج. و(6.6%) وجدوا أن الحرب أسهمت في التبكير بالزواج.

مناقشة نتائج السؤال الأول

_رأى (70%) من المبحوثين أن الحرب أثرت في تأخير سن الزواج؛ وبحسب آرائهم تتدرج الأسباب الرئيسة وراء هذا التأخير تحت محورين أساسيين يتعلق الأول بالظروف الاقتصادية التي أحدثتها الحرب، في حين يرتبط الثاني بالتغيرات الاجتماعية والأمنية.

أ_ الظروف الاقتصادية:

أجمع معظم المبحوثين على القول إن الظروف الاقتصادية السيئة التي أحدثتها الحرب أثرت بشكل مباشر في قدرة معظم الشباب على الزواج، وهذا ما دفع الكثير منهم قسراً على تأخير الزواج إلى سن يتجاوز في معظم الأحيان الـ35 سنة وربما الأربعين أحياناً بالنسبة للشباب، والـ ثلاثين عند الفتيات. فانخفاض مستوى الدخل، وتراجع القوة الشرائية لليرة السورية، وارتفاع أسعار السلع وغلاء المعيشة، إضافةً إلى انتشار البطالة وفقدان

فرص العمل أدى إلى صعوبة تأمين متطلبات الزواج بسبب الأزمة المالية التي ألحقت بالشباب، وعلى حد تعبير أحد المبحوثين "الدخل الذي نتقاضاه بالكاد يكفي ثلاثة أو أربعة أيام، فكيف سيستطيع المقبل على الزواج تأمين منزل وتزويده بأثاث ولو كان متواضع؟ ولو كان لهذا الشخص القدرة على امتهان عمل إضافي هذا العمل لن يكون إلا وسيلة ليكمل حاجياته من مأكل ومشرب حتى نهاية الشهر". فتأمين متطلبات الزواج من مسكن وملبس ومأكل ومشرب وأثاث منزلي والأدوات الكهربائية وغيرها من التفاصيل المرتبطة بحفل الزفاف كان توفيرها قبل الحرب بإمكان الجميع تقريباً خلافاً لما هو الوضع في الوقت الحالي، وهذا ما عبر عنه أحد المبحوثين عندما قال: " كان من يريد الزواج سابقاً قبل الحرب يقترض ليتمكن من تأمين تكاليف حفل الزفاف وحاجيات العروس وأثاث المنزل، وكان المبلغ الذي يحصل عليه كافياً وفي كثير من الأحيان يتبقى منه القليل، أما الآن فإن القرض لا يكفي ثمن غسالة أو براد". وبالرغم من الصعوبات الاقتصادية التي يعاني منها الشباب ممن هم في سن الزواج فقد ذكر العديد من المبحوثين أنه لا يزال هناك فتيات يرفضن هن وأهاليهن تقديم أي تنازلات تسهل إتمام الزواج، وقد ذكر أحد المبحوثين "لقد تقدمت لفتاة بطلب الزواج إلا أنها رفضت فكرة الارتباط بي لأنه ليس لدي القدرة على تأمين ما تطمح إليه كالحفل والفستان والمنزل الذي لا ينقصه شيء وقالت لي: إذا أردت الزواج مني ينبغي عليك تجهيز أمورك للفتاة التي ستكون مسؤول عنها". وحتى مع اتفاق الشاب

والفتاة وتنازلها عن بعض متطلبات الزواج كحفل الزفاف والمصاغ الذهبي و...الخ فإنهم يضطرون لتأخيره عدة سنوات لتأمين أساسيات الحياة الزوجية، وقد عبرت إحدى المبحوثات عن ذلك بقولها: "لقد أحببت شخصاً بقيت على علاقة معه سنين طويلة وتنازلت عن حفل الزفاف والفستان والكثير من الأمور ومع ذلك لم نستطع الإقدام على مشروع الخطوبة إلا بعد ست سنوات من بداية علاقتنا، وذلك لنتمكن من تجهيز أمور منزل الزوجية ولو بإمكانيات متواضعة".

إذاً تبقى إمكانية الزواج بحسب آراء بعض المبحوثين مرتبطة بمدى قدرة الأسر على مساعدة أبنائها في تأمين السكن ودون ذلك فقد أصبح الزواج حلم صعب المنال لمعظم من هم في سن الزواج.

ناهيك عن الظروف الاقتصادية المذكورة أعلاه فقد عزا المبحوثون تأخر سن الزواج إلى التغيرات الاجتماعية والأمنية التي سنوردها فيما يلي.

ب_ التغيرات الاجتماعية والأمنية:

ترتبط التغيرات الاجتماعية والأمنية التي أسهمت في تأخير سن الزواج بحسب المبحوثين بالهجرة والتهجير والتحاق كثير من الشباب بخدمة العلم. فقد أدى النزاع المسلح، وما أحدثه من عنف وقتل ودمار إلى اضطرار الكثير من الأسر إلى مغادرة أماكن سكنهم الأصلية، وخسارة أملاكهم وأرزاقهم للانتقال والعيش في مناطق أخرى أكثر أمناً الأمر الذي نتج عنه سوء أوضاعهم الاقتصادية، وحال دون قدرة الشباب منهم على الزواج، وهذا ما عبر عنه أحد المبحوثين عندما روى لنا قصة أحد جيرانه

بقوله: "لقد استقر أحد الأشخاص هو وعائلته في منزل بالإيجار بالقرب منا بعد أن اضطر لترك كل ما يملك في مكان إقامته الأصلية، وبدأ بالتأسيس لحياته من جديد عوضاً عن السعي بزواج أبنائه كما أن أبناءه يحاولون تأمين لقمة العيش بدلاً من البحث عن استقرارهم وتكوين أسر كونهم في سن الزواج"

ناهيك عن ذلك لقد اضطر الكثير من الشباب إلى الهجرة لإيجاد فرصة عمل تدر عليهم دخل يساعدهم في تأمين مستقبل أفضل وبرأي أحد المبحوثين "كثيرون هم الشباب الذين هاجروا لتحسين أوضاعهم وأوضاع أسرهم، وليتمكنوا من الزواج، وكثر هن الفتيات اللواتي ينتظرن عودة هؤلاء الشباب"

كما ركز المبحوثون على دور تأدية الشباب للخدمة الإلزامية والاحتياطية في تأخير سن الزواج، حيث أكد معظم المبحوثون ممن رأوا أن الحرب أخرت سن الزواج أن التحاق الشباب بخدمة العلم الإجبارية والاحتياطية أثرت بشكل كبير في إمكانية الزواج خاصة مع قضاء الكثير منهم سنوات طويلة بلغت حد9 سنوات أو أكثر أضاعت عليهم إمكانية بناء مستقبلهم، وعلى حد تعبير أحد المبحوثين "أن الشاب قبل الحرب كان ينهي دراسته ويلتحق بخدمة العلم مدة عامين وبعد ذلك كان يسعى لتأمين مستقبله بعمر الـ27 ويتزوج. أما اليوم فإن الشاب يلتحق بالخدمة بعمر العشرين ولا ينهيها قبل الـ 30سنة، ويحتاج مدة خمس سنوات لترتيب أموره، وتأمين مستلزمات الزواج ولا يتزوج في هذه الحال قبل عمر الـ 35 وأحياناً أكثر.

_ كان لدينا (13.4%) من أفراد العينة وجدوا أن الحرب أدت إلى تأخير سن الزواج عند الشباب فقط، في حين أن الفتيات لم يتأثر سن الزواج لديهن ويعود السبب في ذلك أن تأمين متطلبات الزواج يقع بالدرجة الأولى على كاهل الشباب الذين لم يعودوا قادرين على تأمينها إلا بعد قضاء سنين طوال في العمل المتواصل، ويصبح الأمر أكثر سوءاً في أوساط الشباب الذين تركوا وظائفهم وآمالهم والتحقوا بالخدمة الالزامية أو الاحتياطية، وعلى حد تعبير أحد المبحوثين "إن تأمين مستلزمات الزواج وحاجاته تقع على عاتق الشاب وليس على الفتاة أية مسؤولية بهذا الخصوص، هذا الأمر يجعله إذا لم يتخلى عن فكرة الزواج نهائياً فإنه يؤخره سنين عديدة خاصةً إذا التحق بخدمة العلم بعد الدراسة الجامعية"

ودلل أصحاب هذا الرأي على صحة كلامهم بالقول: أن فرق العمر يزداد بشكل واضح في الآونة الأخيرة حيث يتجاوز هذا الفرق في بعض الأحيان الـ15 عام حيث يكون الشاب قد بلغ الـ40 عام أو أكثر في حين أن سن الفتاة يكاد لا يتجاوز الـ25 أو أقل. وعلى حد تعبير إحدى المبحوثات "لم تعد الفتاة تهتم لفرق العمر بينها بين الشاب لطالما كان وضعه المادي جيد وقادر على تلبية متطلباتها" وأضافت بما بمعناه أن تأمين المتطلبات ليس في متناول معظم الشباب بعمر الـ (25،30) لهذا السبب لا يكون لدى الفتاة مشكلة بفرق العمر بينها وبين الخاطب. كما أكد المبحوثون أن تناقص أعداد الشباب مقارنة بأعداد الفتيات لأسباب منها هجرة الشباب إلى الخارج، وموت الكثير منهم في الأعمال القتالية جعلت الكثير من الفتيات توافق على أول شاب يتقدم لخطبتها بغض النظر عن فارق العمر بينهما شريطة أن يكون قادر على تأمين متطلبات الحياة الكريمة لها وتقول إحدى

المبحوثات: "لقد أصبحت البلاد خالية من الشباب، وتسعين بالمئة من الذين بقيوا غير قادرين على الزواج، ولهذا السبب فقد أصبح تقدم الشاب لخطبة الفتاة فرصة لا تعوض في مثل هذه الظروف، خاصةً إذا ما كانت الفتاة قد أنهت دراستها، (وأضافت المبحوثة) أنها تعرف العديد من الفتيات اللواتي تزوجن بعمر الـ 20 أو أقل مع ملاحظة أن فرق العمر بينهن وبين الشاب قد ازداد بالفترة الأخيرة وأن الشباب غالباً هم في عمر فوق الـ35 سنة".

_ في حين وجد (10%) أن الحرب لم تؤثر في تأخير سن الزواج لأنه حين يريد يتغلب على الظروف ويعمل دائماً على إيجاد البدائل، وتسخير الإمكانيات لتحقيق ما يرغب به.

_ (6.6%) قالوا أن الحرب أدت إلى التبكير في سن الزواج ولكن في المناطق الساخنة وذلك للتخلص من العبء الاقتصادي أو لحماية الفتاة أو من مبدأ أن الفتاة بالنهاية مرجوعها لبيت الزوجية.

نلاحظ من أجوبة المبحوثين على السؤال الأول تأكيد معظمهم أن الحرب خلقت واقعاً اقتصادياً واجتماعياً وأمنياً أثر بشكل سلبي على معظم أفراد المجتمع السوري، وحد من قدرة معظم من هم في سن الزواج عن تأمين متطلباته، ما دفع الكثير منهم إلى العزوف عنه أو تأخيره إلى سن متقدمة بشكل إجباري مكرهين على ذلك.

وكان من الواضح توافق أجوبة المبحوثين مع ما أوردناه في الإطار النظري للبحث من حيث تأثير البطالة وانخفاض مستوى الدخل وغلاء المعيشة وأزمة السكن

وغيرها من المشكلات الاقتصادية في تأخير سن الزواج ، كما يلاحظ وجود توافق بين أجوبة المبحوثين، وبعض النتائج التي توصل لها الباحث "جلال السناد" في دراسته التي أجري في عام /2007/ " تأخر سن الزواج لدى الشباب الجامعي دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة دمشق" حيث خلص فيها إلى أن مشكلة السكن وغلاء أجورها وغلاء المعيشة، وانخفاض مستوى دخل الشباب من أكثر الأسباب تأثيراً في تأخر سن الزواج لدى الشباب السوري.

هذه النتائج التي توصل إليها الباحث في دراسته تشير ربما إلى أن التغير في سن الزواج ربما بدأت بوادره قبل الحرب بعدة سنوات، وتعزز انتشار هذه الظاهرة بشكل واضح بعد ما أفرزته الحرب من مشكلات اجتماعية واقتصادية.

8-2- نتائج تتعلق بالإجابة عن السؤال الثاني حول السن المناسب لزواج الشاب

_ رأى (40%) من المبحوثين أن العمر بين الـ (31_35) سنة هو الأنسب لزواج الشاب، و (26.7%) وجدوا أن السن المناسب للزواج هو (36_40) سنة، في حين رأى (16.7%) من أفراد العينة أن السن المناسب لزواج الشاب هو (26-30) سنة. كما ذهب (10%) من المبحوثين إلى عدم تحديد سن لزواج الشاب. وكان لدينا(6.6 %) من المبحوثين أن السن المناسب لزواج الشاب (21 _25) سنة،

مناقشة النتائج

_ بغض النظر عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية والأمنية التي أفرزتها الحرب، وتأثيرها في الحد من إمكانية الزواج عند معظم الشباب السوري تباينت آراء المبحوثين حول السن المناسب لزواج الشاب حيث رأى (40 %) منهم أن العمر بين الـ (31_35) سنة هو الأنسب لزواج الشاب، وانطلقوا بأجوبتهم من اعتبارات عديدة تتمثل بأن الشاب يكون قد أنهى دراسته، وأدى خدمة العلم ودخل مجال الحياة العملية واستطاع خلال هذه السنوات تأمين كل متطلبات الزواج أو جزء منها على الأقل. كما أن الشاب في هذا العمر يكون قد خاض تجارب عاطفية واجتماعية، وامتلك مستوى كافي من الوعي يجعله قادر على اختيار الشريك المناسب له وفق أسس عقلانية بعيداً عن ضغط الحاجة الجنسية التي بحسب تعبير البعض منهم تكون الرغبة بإشباعها هي السبب الرئيس في زواج الشباب قبل سن الـ 30عام. كما أكد المبحوثون أن الشاب في هذا العمر يكون لديه رغبة في الوصول إلى الاستقرار الاجتماعي الذي يعتبر فيه الزواج، وتكوين أسرة منطلق هذا الاستقرار ونواته، وقد عبر أحد المبحوثون عن هذا بقوله: "الشاب بهذا العمر رغبته تكون محصورة بالاستقرار بعد تجارب عديدة خاضها وعرف ما يناسبه منها". كما أكد المبحوثون أن الشاب في هذه المرحلة يكون قد خطا بمرحلة الرجولة، وأصبح لديه صورة واضحة عن طبيعة المرحلة المقبل عليها بما فيها من مسؤوليات، والتزامات داخل مؤسسة الزواج وخارجها.

ذهب (26.7%) للقول أن السن المناسب للزواج هو (36_40) سنة، وعلى حد تعبير المبحوثين يكون الشاب قد وصل إلى مرحلة النضج الحقيقي الذي يمكنه

بحسب آرائهم من اختيار شريك الحياة وفق معايير تختلف عن ذي قبل، فغالباً ما يكون الاختيار قبل هذا العمر مبني على المظهر الخارجي في حين أنه بهذه المرحلة يصبح اختياره قائم على مدى التوافق النفسي والفكري، ومدى قدرتها على التعامل مع ظروف الحياة وإدارة شؤون المنزل وتربية الأطفال، وقد عبر أحد المبحوثين عن ذلك عندما قال: "الشاب يبحث ليس فقط عن زوجة إنما عن أم لأطفاله المستقبليين" . ولم يغفل المبحوثون دور العامل الاقتصادي في وصول الشاب إلى نوع من الاستقرار الذي يدفعه إلى البحث عن شريكة حياته بحرية أكبر من كونه يكون في هذا العمر قد تمكن من تأمين منزل الزوجية، وأصبح قادراً على تلبية متطلبات الزواج. وقد عبر أحد المبحوثين عن الفكرة قائلاً: "عندما يكون الشاب ذو وضع ميسور اقتصادياً د تكون خياراته أوسع لاختيار زوجة المستقبل".

_ في حين رأى (16.7%) من أفراد العينة أن السن المناسب لزواج الشاب هو (26– 30) سنة معللين سبب رأيهم هذا بأن الشاب بهذا العمر، يكون لديه من النشاط ما يكفيه لتحمل أعباء الزواج إضافةً إلا أنه العمر الأجمل للاستمتاع مع من يحب بتفاصيل الحياة الكثيرة، كما أنه ينجب باكراً ويكون لديه القدرة على تربية أولاده ويكون لديه دائماً الطاقة لاستيعابهم ومجاراتهم في مراحل عمرهم المختلفة خاصةً وأنهم سيكبرون معاً.

_ ذهب (10%) من المبحوثين إلى عدم تحديد سن لزواج الشاب معتبرين أن الزواج مرتبط بتوفر مجموعة من الشروط التي إذا ما توفرت فإنه يمكن للشاب أن يتزوج، ويأتي في مقدمة هذه الشروط النضج الفكري والاستقرار الاقتصادي.

رأى (6.6 %) من المبحوثين أن السن المناسب لزواج الشاب في حال كان هناك وفرة مادية متمثلة بالميراث أو مساعدة الأهل من (21 _25) سنة، ومن وجهة نظرهم أن زواج الشاب بهذا العمر يشبع لديه الحاجة الجنسية بطريقة شرعية تجنبه التفكير بعلاقات غير مشروعة.

يلاحظ من أجوبة المبحوثين عن السؤال السابق أن أكثر من ثلثيهم أكد أن السن المناسب لزواج الشاب يبدأ بعد الثلاثين وقد يعبر ذلك عن تأثرهم بظروف الحرب التي رفعت بالواقع سن الزواج عند معظم الشباب.

صحيح أن المشاهدات العامة تؤكد وجود تغير وتأخر في سن الزواج لدى الشباب السوري، ولكن لم نقع على أي مسوح ديموغرافية أو اجتماعية تشير بشكل واضح إلى متوسط السن عند الزواج الأول بعد الحرب، ومقارنته بما كان عليه الحال قبل الحرب.

7_3_نتائج تتعلق حول الإجابة عن السؤال الثالث حول السن المناسب لزواج الفتاة

رأى (50%) من المبحوثين أن السن المناسب لزواج الفتاة يتراوح بين الـ (26_ 30) سنة، ووجد (33.4%) من المبحوثين أن السن المناسب لزواج الفتاة بين (21_25) سنة، في حين رأى (10%) أنه لا يوجد سن مناسب دون غيره لزواج الفتاة، وكان لدينا (6.6%) من المبحوثين ممن قال: أن السن المناسب لزواج الفتاة هو أقل من 20 سنة.

مناقشة النتائج

رأى (50%) من المبحوثين أن السن المناسب لزواج الفتاة يتراوح بين الـ (26_30) سنة معللين ذلك بأن الفتاة بهذا العمر تكون قد وصلت للنضج الفكري والوعي الكافي اللذين يمكناها من الاختيار الصحيح لشريك الحياة الزوجية، وقد عبرت إحدى المبحوثات عن ذلك بقولها: "يكتمل نضج الفتاة بهذا العمر، وتتضح شخصيتها وتصبح مدركة لما تريده ممن سيكون زوج المستقبل، وتكون خياراتها في الغالب منطقية غير مبنية على العاطفة فقط". كما أكد من قال أن هذه المرحلة هي الأنسب لزواج الفتاة: أن الفتاة تكون قد أنهت تعليمها الجامعي في حال كانت تتابع تعليمها، كما تكون قد خاضت تجارب اجتماعية وعاطفية، وقد تكون دخلت سوق العمل. وقد عبر أحد المبحوثين عن هذا بقوله: "تكون الفتاة بهذا العمر قد عاشت حياتها بكل تفاصيلها، وتكون قد اكتسبت خبرات من خلال احتكاكها بالناس وهذا الشيء يساعدها أن تكون زوجة ناجحة". وبرأي المبحوثين تكون الفتاة أصبحت أكثر قدرة على تحمل أعباء الزواج، وإدارة المنزل وتربية الأبناء، والتوفيق بين دورها كزوجة وأم داخل المنزل، ودورها خارج المنزل كامرأة عاملة في حال كانت تعمل.

وجد (33.4%) من المبحوثين أن السن المناسب لزواج الفتاة بين (21_25) سنة، وقد تقاطعت آراؤهم مع أصحاب الرأي السابق بعدة نقاط كالقول بأن: الفتاة تكون قد أنهت تعليمها، وأصبحت قادرة على تربية الأولاد مع إضافة بعض المبحوثين لفكرة أنه في هذا العمر يكون للفتاة طاقة أكبر لتربية الأولاد من كونه

السن المناسب للإنجاب من الناحية البيولوجية لأن قدرتها الجسدية على الحمل، والإنجاب تكون أفضل من أي عمر آخر.

في حين رأى (10%) أنه لا يوجد سن مناسب دون غيره لزواج الفتاة فالأمر مرتبط بظروف الفتاة نفسها، وبمدى نضجها، وعلى حد تعبير المبحوثين من الممكن أن تكون الفتاة قد بلغت الثلاثين أو أكثر دون أن يعني ذلك أنها مهيأة لتحمل أعباء الزواج ومسؤولياته، في حين قد تكون فتاة أخرى بعمر الـ20 سنة، و مهيأة للزواج أكثر من مثيلاتها بالعمر أو ممن يكبرنها سناً.

وكان لدينا (6.6%) من المبحوثين ممن قال: أن السن المناسب لزواج الفتاة هو أقل من 20 سنة، فمن وجهة نظرهم زواج الفتاة هو خيار حتمي لها، ومهما بلغت الفتاة من المستوى التعليمي فلا بد لها أن تتزوج والأفضل لها أن تتزوج باكراً، وتكتسب مهارات إدارة شؤون المنزل وتربية الأولاد والطهي ...الخ، خاصةً إذا لم تكمل تعليمها. وقد عبر أحد المبحوثين عن ذلك بقوله: "في نهاية المطاف مرجوع الفتاة لمنزل الزوجية، ومهما تعلمت ومهما كان عمرها فإن ما يهم الزوج أن تقوم زوجته بأعباء المنزل على أكمل وجه".

يلاحظ مما تقدم تأكيد أكثر من نصف المبحوثين أن السن المناسب لزواج الفتاة دون الـ 25 سنة، في حين أن ثلثهم رأوا أن السن المناسب لزواجها دون الـ 30 سنة مع تقاطع أجوبتهم حول أسباب اختيار هذا العمر، وما يمكن قوله هنا أنه أثناء تحليلنا للمقابلات لاحظنا أن جميع المبحوثين وضعوا (7_10) أعوام كفرق عمر بين الشاب والفتاة. وهذا يدلل ربما أن الحرب قد كان لها دور فعلي بما

أحدثته من ظروف على كافة الأصعدة في زيادة فرق العمر بين الشاب والفتاة عند الزواج.

ما سبق يتوافق مع ما توصل إليه **أندريه كولكزيكي، بريم ساكسينا، روزين جردي** في دراستهم حول فكرة أن الحرب ستزيد من فرق العمر بين الشاب والفتاة وذلك مرتبط بزيادة هجرة الشباب وزيادة الضغوط الاقتصادية عليهم والتي تحول دون إمكانية تأمين مستلزمات الزواج، وإن كان هذا بحسب الدراسة ذاتها لا يهدد بخطر ارتفاع نسبة عزوبة الفتيات.

8-4- نتائج الإجابة عن السؤال الرابع حول المتطلبات التي لا يمكن التخلي عنها لإتمام الزواج

رأى (90 %) من المبحوثين أنه لا يمكن التخلي عن السكن المستقل. وذهب (80 %) إلى عدم التخلي عن وجود دخل ثابت، و(76.7%) لم يكونوا مع التخلي عن ارتداء العروس للفستان. ووجد (36.7%) من المبحوثين عدم التخلي عن إقامة حفل الزفاف.

مناقشة النتائج

حين كان الحديث عن المتطلبات المرتبطة بالزواج، وإتمامه كالسكن والدخل الثابت وحفل الزفاف وفستان العرس وجلسة التصوير والمصاغ الذهبي جاءت الأجوبة على النحو الآتي:

أ _ السكن:

_ عبروا عن ضرورة أن يكون السكن مستقل بغض النظر إن كان ملك أو أجار. معللين ذلك بأن استقلالية السكن الزوجي أحد أهم أركان نجاح الزواج، وتكوين أسرة مستقرة فعلى حد تعبيرهم أن الشاب والفتاة ببداية حياتهم الزوجية خاصةً هما بحاجة العيش منفردين ليصلا إلى درجة من التفاهم والانسجام وقد عبر أحد المبحوثين عن ذلك بقوله: "مهما امتدت فترة الخطوبة فالزوجين بحاجة العيش لوحدهما ليتمكنا من التعرف على بعضهما وليفهم كل منهما الآخر" وبهذه الطريقة يدرك كل من الزوجين ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

كما ذكر المبحوثون أن السكن مع الأهل يحد من حرية الزوجين وخاصةً الزوجة ويخلق من المشكلات ما يعيق تحقيق الاستقرار والسعادة الزوجية. وقد عبر أحد المبحوثين عن الفكرة بقوله: "العيش مع أهل الزوج خطأ كبير آثاره سلبية على خصوصية الزوجين حيث يحجز حرية الزوجة الشخصية من ناحية لباسها وضيوفها بالمنزل ، عدا عن المشكلات بين الزوجة ووالدة زوجها ما يجعل الزوج يقع بين نارين".

ذهب المبحوثون إلى حد القول أن الزواج والسكن مع الأهل يؤثر في تربية الأبناء بسبب التدخلات في تربيتهم من قبل جميع أفراد الأسرة الذي يسكنون مع الزوجين. وبرأي إحدى المبحوثات أن "العيش مع أهل الزوج يجعل من تربية الأبناء مهمة صعبة بين أخذٍ ورد من كون أن الزوجين لديهما طريقة في تربية أبنائهما تكون

مغايرة لطريقة تربية الجدين الأمر الذي يخلق ربما مشكلات مستمرة حول أدق التفاصيل".

_ كان لدينا نسبة (40%) من أصل (90%) يفضلون أن يكون السكن المستقل للزوجين في منزل ملك وليس إيجار، ومرد ذلك أن المنزل الملك يعطي إحساس بالاستقرار والأمان، ويجنب الأسرة التنقل المستمر من منزل إلى آخر. عدا عن قيام المؤجر برفع الأجارات باستمرار، أو تهديد ساكنيه بإخراجهم إذا ما رفضوا ذلك. إضافةً إلى أن السكن بالإيجار يؤدي إلى ضياع جزء كبير من دخل الأسرة في تسديد إيجار المنزل، ويحول دون استثماره في الإنفاق على متطلبات الأسرة وحاجياتها. وبرأي أحد المبحوثين أن السكن بالإيجار يفقد الزواج أهم خاصياته وهو الاستقرار معبراً عن ذلك بـ: "أن السكن بالإيجار يفقد الأسرة استقرارها بسبب التنقل الدائم من منطقة إلى أخرى، ما يجعل علاقات أفرادها مع الآخرين مؤقتة، عدا عن الفترة اللازمة للأبناء للتأقلم مع الوضع الجديد في مدارسهم في كل مرة يغيرون فيها مسكنهم، ناهيك عن تأثر أثاث المنزل وجعله بحالة سيئة نتيجة التنقل"

_ وكان لدينا (50%) من أصل (90%) ليس لديهم مشكلة إن كان المنزل إيجار أو ملك وبرأيهم أن ينتظر الشاب امتلاك منزل ليتزوج من الممكن أن يمنعه الزواج نهائياً في ظل غلاء أسعار العقارات ومحدودية الدخل. وبحسب آرائهم إن وجود الحب والتفاهم بين الشريكين أهم من المنزل الملك.

ب_ الدخل

حين تطرقنا مع المبحوثين إلى أهمية وجود الدخل الثابت أكد (80 %) منهم ضرورة وجود دخل ثابت مع تأكيد أهمية وجود عمل آخر حيث أجمعوا على أن الرواتب والأجور التي يتقاضاها الموظفون في القطاع العام والخاص بالرغم أنها لا تكفي لتلبية حاجات أية أسرة مهما صغر حجمها تكاد لا تكفي أسبوع أو عشرة أيام، مع ذلك يبقى الدخل الثابت يحقق شعور الأمان للأسرة، معبراً عن هذه الفكرة قول أحد المبحوثين: "بالرغم من ضعف الدخل الثابت في الوقت الراهن إلا أني أجده لا بأس به عندما أصبح مسناً فهو سيكفيني لتأمين الخبز"

أكد بعض المبحوثون ضرورة أن يكون كلا الزوجين موظف مع وجود عمل إضافي لكل شخص منهما فمصدر واحد للدخل بات لا شيء أمام صعوبات الحياة الراهنة. وقد عبر أحد المبحوثين قائلاً: "أنا لدي دخل ثابت وزوجتي كذلك الأمر، ونحن نعمل عملاً إضافياً وما يكاد الشهر ينتهي إلا والديون متراكمة علينا، فكيف للشاب أن يتزوج من دون دخل ؟ من هنا أجد أن الدخل أهم عامل من متطلبات الزواج"

في حين أكد (20%) من المبحوثين عدم ضرورة وجود دخل ثابت وتفضيل الأعمال الحرة كالتجارة أو غيرها من الأعمال التي تدر دخلاً يفوق إيجار أية وظيفة بعشر مرات. وعلى حد تعبير أحد المبحوثين "الالتزام بالوظيفة خمسة أيام في الأسبوع، سبع ساعات في اليوم هو مضيعة للوقت، وإذا حاول الشخص العمل بأي عمل خاص قد يدخر أضعاف ما قد يحصل عليه من دخل الوظيفة الثابت"

ج _ حفل الزفاف

وفيما يخص حفل الزفاف كان لدينا (56.7%) مع فكرة إلغاء حفل الزفاف نهائياً على اعتباره أمر غير ضروري وسيكلف العريس تكاليف زائدة يمكن توظيفها بشراء أثاث المنزل، أو أي احتياج آخر أكثر ضرورة للحياة الزوجية خاصةً في ظل الغلاء وارتفاع كل أسعار السلع الضرورية منها والكمالية. وبحسب تعبير أحد المبحوثين: "مهما اختصرنا عدد حضور حفل الزفاف إذا ما أردنا أن نقيم حفل بات من المستحيل أن يكفي مبلغ مليون ليرة"

وجد (36.7%) من المبحوثين ضرورة إقامة حفل الزفاف ولكن بشرط أن يكون متواضع والاقتصار على أهل العروسين فقط، وتجنب التكاليف الباهظة التي لا معنى لها، وقد عبر أحد المبحوثين عن ذلك: "مهما كانت التجهيزات لحفل الزفاف فهي لن تنل إعجاب الجميع ورضاهم، لذا فإني أرى إقامة حفل صغير للعروسين وأسرتيهما كي لا تبق حسرة لدى العروس"

وبالمقابل كان لدينا (6.6%) من المبحوثين ضد إلغاء حفل الزفاف أو التواضع فيه. وقد ذكر أحد المبحوثين أن : "لن يتزوج الفرد كل يوم فدعه يفرح في ليلة العمر ويعيش كل التفاصيل الجميلة، وبالعموم فإن من يبدأ حياته بالحرمان سيكمل حياته بالحرمان"

وفيما يخص موضوع المصاغ الذهبي أجمع معظم المبحوثين عن ضرورة التخلي عن الذهب مع تأكيد (30%) منهم على ضرورة وجود محبس ذهب للفتاة على أقل تقدير.

وعن فستان الزفاف فقد كان لدينا (76.7%) ممن قالوا بضرورة ارتداء العروس للفستان معللين ذلك بأن عدم ارتداء الفتاة فستان زفافها سيبقى حسرة ترافقها مدى الحياة. وبالمقابل كان لدينا (23.3%) ضد فكرة أهمية الفستان كمطلب من متطلبات الزواج التي لا يمكن التخلي عنها. أما عن جلسة التصوير وكان لدينا (70 %) من المبحوثين ممن قالوا أنها ليست مطلباً ضرورياً لا يمكن التخلي عنه من كون أن توفر أجهزة الاتصال الحديثة المزودة بكاميرات تتمتع بدقة عالية بات يؤدي ذات الغرض من جلسة التصوير. و كان لدينا (30 %) قالوا لا يمكن التخلي عنها من فكرة تخليد هذا اليوم بصور للذكرى.

يلاحظ من أجوبة المبحوثين رفضهم التخلي عن المتطلبات التي تعتبر ضرورية لاستقرار الزواج واستمراره كالسكن المستقل والدخل الثابت، وبالمقابل فقد أيد معظمهم تقريباً التخلي عن المتطلبات ذات الطابع الكمالي في الظروف الراهنة التي يمر بها مجتمعنا كحفل الزفاف، والمصاغ الذهبي، وارتداء الفستان وجلسة التصوير. وهذا يدلل ربما على موضوعية ومرونة التعاطي لدى المبحوثين مع مفرزات الحرب، وما خلفته من ظروف كان من الصعب التعامل معها أو تجاوزها لولا تلك المرونة.

مما تقدم يلاحظ تعقد ظاهرة الزواج وتداخل أبعادها، إضافةً إلى تأثر المقبلين على الزواج بالمشكلات الاقتصادية للمجتمع كالبطالة، وغلاء المعيشة وضعف الأجور، وأزمة السكن وغيرها من المشكلات التي تفاقمت منذ اندلاع الحرب التي شهدتها سورية عام /2011/.

9- أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة

توصلنا بعد جمع البيانات وتحليلها إلى مجموعة من النتائج تمثلت بـ:

_ تأكيد معظم المبحوثين أن الحرب أثرت بشكل مباشر في تأخير الزواج، ورفع متوسط السن عند الزواج الأول لدى الجنسين وإن كان ذلك أكثر وضوحاً لدى الذكور منه عند الإناث.

_ تأكيد أكثر من ثلثي المبحوثين أن سن الزواج المناسب عند الذكور يقع بين الـ (31- 40) سنة.

_ رفض معظم المبحوثين التخلي عن السكن الزوجي المستقل لإتمام الزواج، مع تأكيد النصف منهم أنه لا فرق سواء كان ملكاً أو إيجاراً.

_ تأكيد معظم المبحوثين على أهمية وجود دخل ثابت بغض النظر إن كان كافياً أو لا كون وجوده يمنح شعور الأمان والاستقرار للأسرة.

_ تأكيد معظم المبحوثين ضرورة إلغاء حفل الزفاف أو اقتصاره على أهل العروسين والاستفادة من تلك التكاليف في تأمين حاجيات أخرى أكثر أهمية في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التي يعاني منها من هم في سن الزواج.

_ تأكيد حوالي ثلاثة أرباع المبحوثين عدم أهمية ارتداء الفتاة لفستان العرس أو إقامة جلسة التصوير الخاصة.

_ تأكيد معظم المبحوثين أن السن الأنسب لزواج الشاب هو فوق الـ 30 سنة.

_ وصلنا إلى أن السن المناسب لزواج الفتاة هو دون الـ 30 سنة عند ثلث المبحوثين، وأقل من 25 سنة لدى أكثر من نصف المبحوثين بقليل.

المقترحات

1- اتخاذ المؤسسات المجتمعية والمنظمات الأهلية إجراءات تساعد الشباب في تأمين بعض متطلبات الزواج مثل: إجراء الأعراس الجماعية وتقديم بعض التجهيزات المنزلية التي يحتاجها المقبلين على الزواج.
2- الاتفاق بين المصارف العامة والخاصة والمؤسسات المعنية ببيع الأجهزة الكهربائية والمعدات المنزلية لتقديم قروض ميسرة بفوائد مخفضة ولفترات طويلة عن المعتاد بحيث يستطيع المقبل على الزواج تأمين أثاث منزله.
3- إجراء ندوات بمشاركة أخصائيين اجتماعيين للتوعية بخطورة تأخر سن الزواج وعزوف الشباب عنه على المنظومة القيمية والأخلاقية للمجتمع خاصةً أن تأخر الزواج قد يسهم في انتشار العلاقات الجنسية غير المشروعة.
4- التوسع في دراسة الظاهرة من قبل الباحث وباحثين آخرين لما للزواج وتكوين أسرة من أهمية في استقرار حياة الفرد، واستقرار المجتمع ومنظومته القيمية من جهة أخرى.

المصادر والمراجع

المصادر باللغة العربية:

_ صندوق الأمم المتحدة للسكان مركز الاستجابة الإقليمية للأزمة السورية، 2016.

_ المركز السوري لبحوث السياسات، 2013.

_ قانون الأحوال الشخصية السوري.

_ بلميهوب، كلتوم (2010). **الاستقرار الزواجي دراسة في سيكولوجية الزواج**. المكتبة العصرية: مصر.

_ خليل، محمد محمد بيومي (2009). **العزوف عن الزواج مشكلة للدراسة**. جامعة الزفازيق: مصر.

_ دياب، سهيل رزق (2003). **مناهج البحث العلمي**، فلسطين.

_ سبيلا، محمد؛ الهرموزي، نوح (2019). **موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة**. المركز العلمي العربي للأبحاث والدراسات الإنسانية: العراق.

_ سرور، عبير محمد (2016). **زواج القاصرات في الأسرة الريفية المهجرة**. مجلة جامعة دمشق، المجلد 32، العدد 2، جامعة دمشق: سورية.

_ السناد، جلال (2007). **تأخر سن الزواج لدى الشباب الجامعي (دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة دمشق)**. مجلة جامعة دمشق، المجلد 23، العدد1، جامعة دمشق: سورية.

_ لبرش، راضية (2017). **أسباب عزوف الشباب على الزواج**. مجلة علوم الانسان والمجتمع، العدد 24، جامعة خنشلة: الجزائر.

_ مان، ميشيل (1999). **موسوعة العلوم الاجتماعية**. دار المعرفة الجامعية: الاسكندرية.

المراجع الأجنبية:

- PREM C. SAXENA, ANDRZEJ KULCZYCKI and ROZZET JURDI (2004) **Nuptiality Transition and Marriage Squeeze in Lebanon Consequences of Sixteen Years of Civil War**, Journal of Comparative

-Family Studies, Vol. 35, No. 2, TURBULENT TIMES -1 AND FAMILY LIFE IN THE CONTEMPORARY MIDDLE EAST .

دليل المقابلة

البيانات العامة:

1. الجنس ذكر أنثى

2. العمر 21– 30 31– 40 41– 50 51 وما فوق

3. مكان الإقامة ريف مدينة

4. الوضع الاجتماعي عازب متزوج مطلق أرمل

5. مستوى الدخل 101 ألف_ 200 ألف 201 ألف–300 ألف

301– 400 ألف 401_ 500 ألف 501 ألف وما فوق.

أسئلة المقابلة:

بدايةً؛ قبل أن أبدأ بطرح الأسئلة أتوجه إليك بالشكر الجزيل على المشاركة في عينة البحث الذي سأحاول من خلالها استطلاع رأيك حول أهم متطلبات الزواج، والسن المناسب له في ظل المنعكسات الاقتصادية للحرب على سورية.

كما هو واضح من عنوان البحث، أنا أحاول هنا استطلاع رؤية وتصورات قاطني حي الرميلة في مدينة جبلة، مع العلم أن مضمون هذه المقابلة سيستخدم لتحليل هذه الظاهرة الاجتماعية بهدف إغناء البحث العلمي والاجتماعي وليس لأي غرض آخر أياً كان.

تأثير الحرب

هل أثرت الحرب في تغيير السن عند الزواج الأول؟

سن الزواج

برأيك؛ ما هو السن المناسب لزواج الشاب؟ 21- 25 26- 30 31- 35 36- 40 41 فأكثر ولماذا؟

برأيك؛ ما هو السن المناسب لزواج الفتاة؟ أقل من20 21- 25 26- 30 31- 35 36- 40 41 فأكثر ولماذا؟

متطلبات الزواج

ما هي المتطلبات التي تعد ضرورة ولا يمكن التخلي عنها لإتمام الزواج من وجهة نظر أفراد العينة ؟

1_ هل أنت مع التخلي عن السكن المستقل لإتمام الزواج؟ نعم لا ولماذا؟

2_ هل أنت مع التخلي عن الدخل الثابت لإتمام الزواج؟ نعم لا ولماذا؟

3_ هل أنت مع التخلي عن حفلة الزفاف لإتمام الزواج؟ نعم لا ولماذا؟

4_ هل أنت مع التخلي عن المصاغ الذهبي لإتمام الزواج؟ نعم لا ولماذا؟

4_ هل أنت مع التخلي عن ارتداء فستان الزفاف؟ نعم لا ولماذا؟

5_ هل أنت مع التخلي عن جلسة التصوير الخاصة؟ نعم لا ولماذا؟

البعد الإبستمولوجي في نظرية المعرفة الموضوعية عند كارل بوبر

الدكتور إبراهيم رزوق* محمود حسن**

ملخّص

مثّلت نظرية المعرفة الموضوعية أحد أهم النظريات التي أسهمت في تطوير مناهج البحث العلمي ، كونها أدت دوراً مهماً ورائداً في تحديد الأسس المنطقية والعلمية في فلسفة العلم بما يسهم في استنتاج نماذج علمية من المعارف الموضوعية ، والتي تهدف إلى صياغة نظريات علمية موضوعية وحقائق موضوعية قابلة للقياس المنطقي ، حيث إنّ الهدف الأساس لنظرية المعرفة الموضوعية هو البحث في كيفية نمو المعرفة وأسس تطوير المعرفة العلمية ، وضمن هذا السياق أسست الإبستمولوجيا الموضوعية لمعرفة ذات مبادئ متطورة بما يحقق التقدم العلمي المستمر ، وهذا يسهم بدوره في انجاز عملية البحث الموضوعي العلمي بما يحقق الغاية المعرفية من نظرية المعرفة الموضوعية .

ويعدّ فيلسوف العلم كارل بوبر من أبرز مؤسسي نظرية المعرفة الموضوعية ، حيث شكلّت الإبستمولوجيا الموضوعية عند كارل بوبر القاعدة الأساسية لنظرية المعرفة الموضوعية عنده ، وذلك من خلال الدور الإبستمولوجي الذي قام به فيلسوف العلم كارل بوبر من خلال تأكيده في أبحاثه حول الإبستمولوجيا الموضوعية على : انتقال فلسفة العلم من منطق تبرير المعرفة العلمية ومحاولة تأكيد مصداقيتها إلى منطق التقدم والكشف العلمي ، وأكد كارل بوبر على أن السمة الأساسية لنظريات المعرفة العلمية والفلسفية هي إمكانية تكذيبها وقابليتها المستمرة للنقد العلمي من أجل تصحيح الأخطاء العلمية القائمة ، وإعادة صياغة النظريات العلمية بما يتناسب مع المعطيات العلمية الراهنة ، بما يحقق التطور العلمي المستمر .

الكلمات المفتاحية : الإبستمولوجيا ، نظرية المعرفة ، الموضوعية ، المنهج الموضوعي .

* أستاذ ، قسم الفلسفة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة تشرين ، اللاذقية ، سوريا .
** طالب دراسات عليا (دكتوراه) ، قسم الفلسفة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة تشرين ، اللاذقية ، سوريا .

The epistemological dimension in Karl Popper's objective epistemology

Dr. Ibrahim Razzouk* **Mahmoud Hassan****

ABSTRACT

Objective epistemology was one of the most important theories that contributed to the development of scientific research methods , As it played an important and pioneering role in defining the logical and scientific foundations in the philosophy of science, which contributes to deducing scientific models from objective knowledge, Which aims to formulate objective scientific theories and objective facts that are logically measurable , Since the main objective of objective epistemology is to research how knowledge grows and the foundations for developing scientific knowledge , Within this context, objective epistemology established knowledge with advanced principles in order to achieve continuous scientific progress , This, in turn, contributes to the completion of the objective scientific research process in order to achieve the cognitive goal of objective epistemology.

*professor , Dept. of philosophy , faculty of arts humanities , Tishreen university , Lattakia , Syria .

**PHD student, Dept. of philosophy , faculty of arts humanities , Tishreen university , Lattakia , Syria .

The philosopher of science, Karl Popper, is considered one of the most prominent founders of objective epistemology ، Whereas Karl Popper's objective epistemology constituted the basic basis of objective epistemology , And that is through the epistemological role played by the philosopher of science Karl Popper through his emphasis in his research on objective epistemology on: the transition of the philosophy of science from the logic of justifying scientific knowledge and trying to confirm its credibility to the logic of progress and scientific discovery ، Karl Popper emphasized that the main feature of scientific and philosophical epistemology is the possibility of its falsification and its continuous openness to scientific criticism in order to correct existing scientific errors , And reformulating scientific theories in proportion to the current scientific data, in order to achieve continuous scientific development .

Keywords: Epistemology, theory of knowledge, objectivity, objective method .

مقدمة:

تأسست نظرية المعرفة الموضوعية على الفكرة العلمية القائلة بأن : المنهج العلمي الموضوعي هو أساس المعرفة الموضوعية ومصدرها ، ولا يمكن أن تتكون المعرفة من دون وجود الموضوعات العلمية التي تشكّل الطرف الأساسي في عملية المعرفة والبحث العلمي ، وبذلك أكدت نظرية المعرفة الموضوعية بأن : المنهج العلمي الموضوعي هو الضرورة الأساسية التي ترتكز عليها عملية البحث العلمي الموضوعي .

وهذا ما أكده أتباع الإبستمولوجيا الموضوعية وعلى رأسهم : فيلسوف العلم كارل بوبر الذي بيَّن في فلسفته الموضوعية العلمية ذات الطابع النقدي العقلاني أنَّ : جميع النظريات العلمية قابلة للنقد العلمي من دون استثناء ، وإن قابلية أي نظرية علمية للدحض العلمي هو دليل على امتلاك هذه النظرية العلمية لخاصية الموضوعية العلمية ، وضمن هذا السياق : تأسست فلسفة كارل بوبر على معيار التكذيب المستمر للنظريات العلمية ، حيث أكدّ بوبر على أن المعرفة العلمية هي معرفة موضوعية وليست ذاتية .

ويؤكد كارل بوبر على أن السمة الأساسية للإبستمولوجيا الموضوعية هي أنها إبستمولوجيا تطورية ، وبالتالي كان لنظرية التطور عند دارون أثر واضح وكبير في الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر ، ولذلك تعد فلسفة العلم عند بوبر بأنها إبستمولوجيا تطورية داروينية ، حيث اعتمد بوبر في فلسفته العلمية على فكرة التطور العلمي ضمن منهجه في البحث العلمي ، حيث أعلن بوبر أن منهجه العلمي هو منهج المحاولة والخطأ ، ويعدّ بوبر أنّ النظريات العلمية ليست ثابتة بل هي في تغير مستمر وتطور دائم ، وإن هذا التطور العلمي المستمر للنظريات العلمية يعود سببه للواقع الموضوعي المتغيّر الذي يؤثر بشكل مستمر على النظريات العلمية ويطورها وفقاً للمعطيات العلمية الموضوعية الموجودة في الواقع العلمي الموضوعي والتي تؤثر بشكل مباشر في المضمون المعرفي للنظريات العلمية .

وقرر كارل بوبر بأنَّ : معيار التكذيب هو المعيار الأساسي في فلسفته العلمية ، حيث يتم استخدام معيار التكذيب لتقييم المحتوى المعرفي للنظريات العلمية وذلك من خلال المنهج الموضوعي ، وذلك بهدف تمييز المعرفة العلمية عن المعرفة اللاعلمية ، وبذلك

أسهم بوبر في إحداث نقلة نوعية للمعرفة العلمية على صعيد المنهج العلمي والمخزون المعرفي الخاص بكل معرفة علمية .

مشكلة البحث وأسئلته :

تعدّ إشكالية المعرفة الموضوعية من أبرز الإشكاليات الإبستمولوجية التي بحث فيها فلاسفة العلم وعلى رأسهم فيلسوف العلم كارل بوبر الذي أسس لمذهبه الخاص بالمعرفة الموضوعية ، حيث أكدّ بوبر في فلسفته الموضوعية أنَّ المعرفة موضوعية المنشأ ، واعتبر بوبر بأن المشكلات العلمية هي نقطة البدء في الإبستمولوجيا الموضوعية عنده وذلك بهدف البحث الموضوعي والكشف العلمي عن الأسس التي ترتكز عليها المعرفة الموضوعية ، وذلك في سياق استنتاج قوانين تطور المعرفة الموضوعية ، واستناداً على ذلك أسس بوبر معرفته الموضوعية على مجموعة من المبادئ والمعايير المنطقية الموضوعية ، ومن أهم هذه المعايير : معيار قابلية التكذيب العلمي ومعيار المعرفة من أجل المعرفة ، وضمن هذا السياق المعرفي وضع بوبر قواعد منهجه الموضوعي الذي رفض من خلاله منهج الاستقراء ، حيث اعتبر بوبر بأن الاستقراء هو مجرد خرافة لأنه يقدم معرفة ذاتية غير موضوعية ، وإن أهم سمة من سمات المنهج العلمي الموضوعي عند بوبر هو أنه منهج نقدي يعمل باستمرار على نقد النظريات العلمية بهدف اكتشاف مواطن الخطأ فيها ، وذلك في سياق تطوير المعرفة العلمية بشكل دائم ، وبالتالي صاغ بوبر الإبستمولوجيا الموضوعية عنده وفقاً لنظرية التطور عند دارون ، حيث اعتبر بوبر بأن المعرفة تتطور مع مرور الزمن ولذلك عمل بوبر من خلال استخدام منهجه الموضوعي على اكتشاف آلية تطور المعرفة وذلك بهدف تحقيق أعلى قيمة من الصدق الموضوعي الذي يتناقض مع المعرفة الذاتية ، لأنها معرفة تعتبر أن الذات العارفة هي مصدر المعرفة وبالتالي تخضع المعرفة الذاتية لميول الذات العارفة وأهوائها المتعددة ، بما يجعل المعرفة الذاتية تخرج عن نطاق الموضوعية العلمية ولذلك رفض بوبر المعرفة الذاتية رفضاً قاطعاً واعتبرها معرفة غير علمية .

وضمن هذا السياق الإبستمولوجي : سنقوم في هذا البحث بدراسة وتحليل البعد الإبستمولوجي في نظرية المعرفة الموضوعية عند بوبر ، وتقديم دراسة نقدية لمبادئ

المعرفة الموضوعية عند بوبر وذلك بهدف اكتشاف القيمة العلمية والإبستمولوجية للمنهج الموضوعي عند بوبر .

وإنّ ما سبق ذكره يثير لدينا مجموعة من الأسئلة الهامة :

_ ما هي أهم المعايير والمبادئ المنطقية التي بنى بوبر عليها نظريته الموضوعية في المعرفة ؟

_ وما هي القيمة الإبستمولوجية لهذه المعايير الموضوعية ؟

_ وما هو مفهوم المنهج العلمي الموضوعي عند بوبر ؟

_ وما هي القواعد المنهجية التي يرتكز عليها المنهج الموضوعي عند بوبر ؟

_ وكيف استطاع بوبر أن يوظّف نظرية التطور عند دارون في بناء نظريته في المعرفة الموضوعية ؟

_ وما هو الدور الإبستمولوجي للعقلانية الموضوعية عند بوبر ؟

_ كل هذه الأسئلة السابقة وما تحمله من استفسارات غامضة ومعانٍ غير معروفة : شجعتني على البحث في إشكالية : البعد الإبستمولوجي في نظرية المعرفة الموضوعية عند بوبر ، وذلك بهدف البحث عن الأهمية الإبستمولوجية لنظرية بوبر في المعرفة الموضوعية .

ووفقاً لما تقدّم : قُسِّم هذا البحث إلى أربعة محاور بحثية رئيسية بهدف اكتشاف الإجابات عن التساؤلات التي تضمنتها إشكالية البحث السابقة الذكر .

وهذه المحاور البحثية هي على الترتيب التالي :

_ المحور الأول : المعايير المنطقية للمعرفة الموضوعية عند بوبر

_ المحور الثاني : المفهوم الإبستمولوجي للمنهج الموضوعي عند بوبر

_ المحور الثالث : التوظيف الإبستمولوجي لنظرية التطور في بناء المعرفة الموضوعية

_ المحور الرابع : الدور الإبستمولوجي للعقلانية الموضوعية عند بوبر

أهمية البحث :

تعدّ نظرية المعرفة الموضوعية عند بوبر من أهم النظريات الإبستمولوجية التي أسهمت في ابتكار العديد من المصطلحات والمفاهيم العلمية التي كان لها دوراً بارزاً في تطور نظرية المعرفة بشكل عام ، بالإضافة إلى ابتكار المنهج العلمي الموضوعي الذي وضع قواعده فيلسوف العلم كارل بوبر ، وهذا ما أعطى للإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر بعداً إبستمولوجياً مهماً ، بحيث أسهمت الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر في تطوير الواقع العلمي من خلال تطوير النظريات العلمية ، وهذا ما أكسب الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر أهمية معرفية كبيرة .

ومن هذا المنطلق تكمن أهمية البحث في البعد الإبستمولوجي في نظرية المعرفة الموضوعية عند كارل بوبر من أجل توضيح الدور الإبستمولوجي لنظرية المعرفة الموضوعية عند بوبر في البحث المعرفي والتطور المعرفي للنظريات العلمية .

أهداف البحث :

يهدف هذا البحث: إلى تقديم دراسة نقدية وتحليلية للبعد الإبستمولوجي في نظرية المعرفة الموضوعية عند كارل بوبر ، وذلك من أجل توضيح الدور المعرفي للمنهج الموضوعي عند كارل بوبر ، ومن أجل تمييز المعرفة العلمية عن المعرفة اللاعلمية ، وذلك للبحث في الدور الإبستمولوجي لفلسفة العلم عند بوبر ، وذلك بهدف الكشف عن آلية التطور الإبستمولوجي للمحتوى المعرفي للنظريات العلمية التي يتم تقييمها علمياً بشكل دائم من خلال منهج التكذيب عند بوبر من أجل تبيين الدور الإبستمولوجي للمنهج العلمي الذي اتبعه بوبر في عملية البحث العلمي ، وهذا ما تسعى فلسفة العلم لتوضيحه بشكل دائم ، بهدف تقديم النقد العلمي الصحيح للمعرفة العلمية بما يساهم في تصحيح المسار المعرفي للنظريات العلمية بشكل دائم ومستمر .

منهجية البحث :

اقتضى البحث في موضوع (**البعد الإبستمولوجي في نظرية المعرفة الموضوعية عند كارل بوبر**) استخدام المنهج النقدي التحليلي ، وذلك لتقديم دراسة نقدية وتحليلية للمفاهيم الإبستمولوجية التي تضمنتها نظرية المعرفة الموضوعية عند بوبر ، ومن أهم هذه المفاهيم : مفهوم المنهج العلمي الموضوعي ، ومفهوم الإبستمولوجيا التطورية ، ومفهوم قابلية التكذيب العلمي ، بالإضافة لتوضيح الأثر الإبستمولوجي للمفاهيم العلمية التي استخدمها بوبر في فلسفته العلمية ، وذلك بهدف اكتشاف التغيّرات والتحولات المنهجية التي أثرّت في البناء العام للبحث العلمي والمعرفي ، ومن أجل معرفة الأبعاد الإبستمولوجية لنظرية المعرفة الموضوعية عند بوبر وللمفاهيم الإبستمولوجية المرتبطة بهذه النظرية ، وذلك على الأصعدة المعرفية والعلمية كافة .

مصطلحات البحث :

ـ الإبستمولوجيا (Epistemology) : هي مصطلح تعود جذوره إلى اللغة اليونانية ، ويتألف مصطلح الإبستمولوجيا من شطرين يونانيين ، الشطر الأول : (Episteme) ويعني المعرفة العلمية ، والشطر الثاني : (Logos) ويعني العلم أو النظرية أو العقل ، واعتماداً على هذا الاشتقاق اللغوي يتفق معظم المشتغلون بالإبستمولوجيا في معرض تحديدهم هويتها على أنها ذلك الاختصاص الذي يتخذ من المعرفة العلمية حصراً ، أي الإبستمي (Episteme) : موضوعاً له، ويختلفون في فهمهم لمعنى اللوغوس (Logos) ، فالذين يرون اللوغوس مجرد عقل للتفسير والتقويم يؤكدون على أن منهج الإبستمولوجيا تابع لمملكة الفلسفة وبالتالي فإن الإبستمولوجيا ليست سوى تفكير فلسفي في العلم ، أما أولئك الذين يعدون اللوغوس علماً فإنهم ينظرون للإبستمولوجيا على أنها علم المعرفة العلمية والذي يمكن أن يضاف إلى قائمة العلوم ، والإبستمولوجيا كمصطلح تستخدم مرة بمعنى نظرية المعرفة، ومرة بمعنى علم المعرفة العلمية ، ومرات بمعنى (**فلسفة العلوم**) .

حتى إنّ مؤسس الإبستمولوجيا المعاصرة غاستون باشلار (Gaston Bachelard) : يستخدم مصطلح الإبستمولوجيا تارةً بمعنى فلسفة العلم وتارةً أخرى بمعنى العقلانية التطبيقية ، ويدعوه أحياناً بفلسفة الرفض ، وأحياناً أخرى بالفلسفة المفتوحة .

ومن التعريفات الاصطلاحية التي أعطيت للإبستمولوجيا والأكثر استخداماً من قبل المختصين هو تعريف آندريه لالاند (Andre Lalande) الذي يعتبر أن الإبستمولوجيا هي : الدراسة النقدية للمبادئ والفرضيات والنتائج العلمية ، وهي الدراسة الهادفة إلى بيان أصلها المنطقي لا النفسي ، وقيمتها الموضوعية ، ومع ذلك فإن مصطلح الإبستمولوجيا في اللغة الإنكليزية مرادف لمصطلح نظرية المعرفة ، أما في اللغة الفرنسية فيعني مصطلح الإبستمولوجيا : فلسفة العلوم .

_ المنهج العلمي (Scientific method) : هو طريقة إجرائية ميّزت العلوم الطبيعية منذ القرن السابع عشر ، وتتكون من المراقبة المنهجية والقياس والتجربة وصياغة الفرضيات واختبارها وتعديلها .

_ المنهج الموضوعي (objective method) : هو المنهج العلمي الذي يساعد على الوصول إلى المعرفة الموضوعية ، وذلك بخلاف المناهج العلمية الأخرى التي تعتمد على قواعد منهجية ذاتية، غير موضوعية، ولا تصلح لبناء المعرفة الموضوعية ، ويعرّف كارل بوبر المنهج الموضوعي في كتابه منطق الكشف العلمي بأنه هو : منهج العلم ، المنهج النقدي ، منهج المحاولة والخطأ ، منهج اقتراح الفروض الجريئة ، وتعريضها لأعنف نقد ممكن ، كي نتبين مواطن الخطأ فيها .

_ المنهج الذاتي (subjective method) : هو المنهج الذي تعتمد عليه نظرية المعرفة الذاتية ، ويعتمد المنهج الذاتي على العقل الإنساني بوصفه المنبع الرئيسي للحقائق والمعارف المرتبطة بها ، ويعتبر أتباع المنهج الذاتي في المعرفة بأنَّ الحقيقة ذاتية ، ويبني أتباع المنهج الذاتي قواعدهم المنهجية والمعرفية وفقاً للذات العاقلة وأحكامها العقلية الذاتية .

_ معيار قابلية التكذيب (falsifiability standard) : هو المعيار العلمي الذي وضعه فيلسوف العلم كارل بوبر في نظريته الخاصة بالإبستمولوجيا الموضوعية ، وقابلية التكذيب هي خاصية إمبريقية (empiricism) بمعنى تجريبية ، ويتصف بها كل نسق علمي ، حيث إن بقاء قانون علمي قابل للتكذيب يكفي لأن يستحوذ على الصفة العلمية إلى أنّ يتم تكذيبه .

_ نظرية المعرفة (Theory of knowledge) : هي البحث في طبيعة المعرفة وأصلها وقيمتها ووسائلها وحدودها ، وهي البحث في المشكلات الفلسفية الناشئة عن العلاقة الجدلية بين الذات والموضوع ، أو بين العارف والمعروف ، فهي مبحث فلسفي في أصل المعرفة وماهيتها وحدودها ودرجة اليقين فيها .

_ نظرية المعرفة الموضوعية (The theory of objective knowledge) : وهي النظرية التي تعدّ بأن المعرفة ذات منشأ موضوعي ، وإن الموضوعات الموجودة في الكون الموضوعي هي المصدر الوحيد للمعرفة، وأسست نظرية المعرفة الموضوعية لمفهوم الحقيقة الموضوعية الذي يعدّ بأن الحقائق توجد فقط بشكل موضوعي مستقل عن الذات العارفة وميولها الذاتية والنفسية المتعددة والتي تؤثر بشكل سلبي في تحصيل المعرفة والحقائق المرتبطة بها ، ويعدّ فيلسوف العلم كارل بوبر من أبرز روّاد نظرية المعرفة الموضوعية .

_ نظرية المعرفة الذاتية (The theory of subjective knowledge) : وهي النظرية التي تعدّ بأنَّ الذات الإنسانية العاقلة هي المصدر الوحيد للمعرفة في الوجود ، حيث يعدّ أتباع نظرية المعرفة الذاتية بأنَّ : الذات الإنسانية تمتلك كياناً ذاتياً مستقلاً عن الواقع الموضوعي المحيط بها ، وتنفرد الذات الإنسانية بالعقل الذي يعدّ المنبع الأول للمعرفة ، وأسّس أتباع نظرية المعرفة الذاتية لمفهوم الحقيقة العقلية الذي يعدّ بأن العقل الإنساني هو المصدر الوحيد للحقائق في عالم المعرفة .

_ نظرية التطور (The theory of evolution) : هي النظرية التي وضعها عالم الأحياء الإنكليزي تشارلز دارون (Charles Darwin) وتنصّ على أنَّ : دنيا الطبيعة

فيها سلسلة لا تنتهي من الكفاح من أجل الحياة ، إذ ينقضّ الحيوان الوحشي على غيره فيهلكه ، وكذلك تتنافس جميع الكائنات الحية في الحصول على الغذاء والماء والمأوى ، فما كان منها الأقوى والأسرع والأصلب ، فهو الذي يبقى ، أما الضعيف فيهلك ، والأنواع القوية القادرة على الفتك بمنافسيها ، القادرة على التكيف مع البيئة تبقى وتحكم بالفناء على الأنواع الضعيفة الأقل تكيفاً مع البيئة ، وعلى هذا النحو يتم الانتخاب الطبيعي ، ويسمى مذهب دارون : بالداروينية ، وقدّم دارون في مذهبه إسهامات متميزة في براهينه لإثبات آلية تطور الكائنات الحية واكتشاف مبدأ الانتخاب الطبيعي وقابلية توريث التباين والفروقات الوراثية بين الكائنات الحية ، وكيف أن هذا المبدأ ووراثة التباين هما علة التطور ، وتعتبر الداروينية أنها : مذهب التحوّل أو التبدل الذي يؤكد على أنَّ الأنواع تنشأ بعضها عن بعض ، ولاسيما النوع الإنساني الذي ينحدر عن الأنواع الحيوانية التي ترجع إلى أصل واحد أو عدة أصول ، والداروينية هي القول بأن تبدل الأنواع ناشئ عن مبدأ الانتخاب الطبيعي ، وهي بهذا المعنى مقابلة لمذهب لامارك وسبنسر التطوري ، والذي يقرّ بأن تبدل الأنواع ناشئ عن التكيف بوساطة الممارسة والوراثة .

أولاً : المعايير المنطقية للمعرفة الموضوعية عند بوبر

تعدّ فلسفة العلم عند بوبر بأنها إبستمولوجيا ثورية ذات أبعاد موضوعية وركائز منطقية ، حيث أسّس بوبر فلسفته العلمية الموضوعية على مجموعة من المعايير والمبادئ الموضوعية العلمية ، ويوضّح كارل بوبر بأنَّ : أهم معيار من معايير المعرفة الموضوعية عنده هو : معيار قابلية التكذيب، حيث يبين بوبر بأنه : نستطيع من خلال تطبيق معيار قابلية التكذيب أنّ نميّز المعرفة الموضوعية عن المعرفة غير الموضوعية ، ويعدّ بوبر بأنَّ : معيار قابلية التكذيب هو القاعدة الأساسية التي ترتكز عليها الإبستمولوجيا الموضوعية عنده، حيث يتم تطبيق معيار قابلية التكذيب على المعارف من أجل تمييز المعارف الموضوعية عن المعارف غير الموضوعية .

ومن هذا المنطلق يوضّح بوبر بأنَّ أهم سمة من سمات المعرفة الموضوعية هو أنها معرفة تقبل مبدأ التكذيب المنطقي ، بينما المعرفة غير الموضوعية فهي معرفة لا تقبل مبدأ التكذيب المنطقي ، وبالتالي : (لقد سعى بوبر إلى تطوير مفهوم معياره التكذيبي انطلاقاً من تفسيره لحركة العلم وتطور أنساقه بشكل مستمر ، فالخطوة الأخيرة التي صاغها لتساهم في بلورة معياره هي أنّ النظريات العلمية متفاوتة الدرجة من حيث قابليتها للتكذيب ، وذلك وفقاً لمقتضيات محددة تتمثل في توافر الركائز التي تحدث البحث بصددها فيما سبق ، فكل ركيزة تسهم في زيادة أو نقصان درجة القابلية للتكذيب ، حيث إنَّ القضايا الأساسية وما تنطوي عليه من فئات ، وكذلك قابليتها للاختبار ومحتواها المنطقي والتجريبي ، كل ذلك يؤثر في عملية انتقاء المؤسسة العلمية لنظرية دون أخرى ، حيث تكون درجة قابليتها للتكذيب أعلى وفقاً للتصور البوبري) [1] .

ويبين بوبر بأن تفاوت النظريات العلمية في قابليتها للتكذيب هو دليل على تفاوت هذه النظريات في درجة موضوعيتها العلمية ، وبالتالي كلّما امتلكت النظريات المعرفية درجة عالية من قابلية التكذيب المنطقي، كلّما امتلكت هذه النظريات المعرفية درجة عالية من الموضوعية العلمية .

وضمن هذا السياق المعرفي يبين بوبر بأنَّ : الإبستمولوجيا الموضوعية عنده تتأسس أيضاً على المعيار الموضوعي (المعرفة من أجل المعرفة)[2] ، ويشكّل هذا المعيار الموضوعي صلب الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر ، حيث يعدّ بمثابة حد منطقي فاصل بين المعرفة الموضوعية والمعرفة غير الموضوعية ، وبالتالي وفقاً لهذا المبدأ الموضوعي ، يتجسد هدف المعرفة الموضوعية بالبحث المنهجي والموضوعي عن المعرفة بهدف المعرفة فقط ، وهذا بدوره يعدّ تحقيقاً لأعلى درجات الموضوعية العلمية ،

1 _ اختيار ، ماهر : إشكالية معيار قابلية التكذيب عند كارل بوبر في النظرية والتطبيق ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2010 ، ص 174 .

2 _ شيفرد ، ليندا: أنثوية العلم ، ت: د. يمنى الخولي ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1990 ، ص 136.

وبذلك يؤكد كارل بوبر على سلطة العلم الموضوعية التي تتجسد في مبدأ : المعرفة من أجل المعرفة ، ويوضّح بوبر ضمن هذا الإطار المعرفي بأنّ مقياس صدق الأفكار هو تحقيقها لمبدأ المعرفة من أجل المعرفة ، وابتعادها عن الرغبات والمصالح الذاتية المرتبطة بالمعرفة الذاتية ، وبذلك يميّز بوبر بين المعرفة الموضوعية والمعرفة الذاتية من خلال رؤيته الإبستمولوجية بأنَّ : (المعرفة لا تستحق أسمها إلاّ إذا كانت موضوعية ، وتكون موضوعية حين تقبل النقد وتقطع صلتها بكل ذات ، فإن فعلت كشفت عن أنها وجود مستقل قائم بذاته)[3] ، وبالتالي فإن المعرفة الموضوعية بحسب بوبر هي المعرفة البعيدة عن اعتقادات الذات وأهوائها الذاتية المتعددة ومصالحها الشخصية المختلفة ، وبالاستناد على ذلك : (تتكون المعرفة الموضوعية، من وجهة نظر بوبر، من الأفكار العلمية والفلسفية، ومن مخزونات العقول الإلكترونية وكل النظريات المصوغة، خلاف تلك الذاتية التي تتكون من الاعتقادات، ومن حالات العقل وحالات الشعور، ومن النزوعات وردود الأفعال، فالمعرفة بهذا المعنى اعتقادات الذات، ما تقرّه أو ما تنكره، معرفة لا تنفصل عن الذات العارفة، ولها دائماً شكل واحد هو : أنا أعرف، أو أنا أعتقد وهو شكل من المعرفة لا يحتمل الخطأ أبداً، وبالتالي لا يقبل النقد أبداً طالما أن ما أعتقده، أعتقده فعلاً)[4] .

ويؤكد بوبر بأن معيار قابلية التكذيب يعطي للمعرفة الموضوعية بعداً منطقياً وقيمة منهجية وذلك لأن المعارف الموضوعية التي تخضع لمعيار قابلية التكذيب هي معارف علمية تقبل الخضوع للاختبارات العلمية من أجل التأكد من صدق أفكارها العلمية ، وبالتالي يعتبر مبدأ قابلية الاختبار العلمي الذي يخضع له المحتوى المعرفي للنظريات العلمية هو المقياس العلمي لصدق المضمون العلمي لهذه النظريات والأفكار التي تتضمنها ، وبالتالي : (إن منهج بوبر ومعياره التكذيبي لا يتجسدان إلاّ من خلال الاختبار التجريبي للقضايا الأساسية ، فهو يرى أن صيرورة العلم لا تستمر في تغيير مفاهيمها وثورية نظرياتها إلاّ عن طريق تلك الاختبارات القاسية لأنساقها النظرية ، ومن

3 _ خير بك ، فؤاد : من الإبستمولوجيا إلى المجتمع ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 2002 ، ص 42 .
4 _ المرجع السابق نفسه ، ص 42 .

هنا يمكن القول إن الاقتناع الذاتي وخبرة الباحث لا مكان لهما في المنهج والمعيار اللذين اعتمدهما بوبر)[5] .

وبالتالي يتجسد معيار المعرفة الموضوعية عند بوبر في : أنّ تكون المعرفة والنظريات العلمية المرتبطة بها قابلة للاختبار العلمي بشكل دائم ومستمر ، ويؤكد بوبر بأنه : كلما كانت النظرية العلمية أفضل من غيرها من النظريات العلمية الأخرى في قابلية الاختبار ، كلما كانت أكثر موضوعية ، ويتبين من خلال ما تقدم بأنَّ : (قول بوبر بأنه كلما كانت النظرية العلمية قابلة للتكذيب أكثر فقد حازت على الصفة العلمية أكثر، يدفعنا للقول بأنه كلما استطاع العلم تغيير وتطوير مناهجه ومعاييره أكثر فإنه سيقارب الواقع المتغير أكثر، وذلك لعدم وجود قاعدة عامة وشاملة لعملية الكشف العلمي، فلكل فرض أو قانون أو نظرية : الظروف المحيطة الخاصة التي أنتجتها)[6] .

ونستنتج مما تقدم بأن : فيلسوف العلم كارل بوبر قد وضع مجموعة من المعايير المنطقية من أجل تمييز المعرفة الموضوعية عن المعرفة غير الموضوعية ، ومن أهم هذه المعايير : معيار قابلية التكذيب المعرفي الذي يقرر بأنه : كلما كانت المعرفة قابلة لتكذيب محتواها المعرفي ، كلما كانت أكثر موضوعية ، ومن بين أهم المعايير التي اعتمدها بوبر في تحديد موضوعية المعرفة أيضاً هو معيار : المعرفة من أجل المعرفة ، حيث بيّن بوبر في هذا المعيار: أن المعرفة الموضوعية لها هدف واحد فقط وهو تحقيق المعرفة، وذلك بعيداً عن الدوافع الشخصية والمصالح الذاتية التي ترتبط بالذوات وأهوائها المتعددة.

وبالاستناد على ذلك ميّز بوبر بين المعرفة الموضوعية والمعرفة الذاتية ، فالمعرفة الموضوعية عند بوبر هي المعرفة الصادقة والحقيقية التي تتضمن مخزونات الكتب

5 _ اختيار ، ماهر : إشكالية معيار قابلية التكذيب عند كارل بوبر في النظرية والتطبيق ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2010 ، ص 170 .

6 _ اختيار ، ماهر : إشكالية معيار قابلية التكذيب عند كارل بوبر في النظرية والتطبيق ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2010 ، ص 375 .

والعقول والمعارف والنظريات العلمية ، بينما المعرفة الذاتية فهي المعرفة الخاطئة والنسبية والمحدودة والتي ترتبط باعتقادات الذات وأهوائها المتعددة ودوافعها المختلفة .

ثانياً : المفهوم الإبستمولوجي للمنهج الموضوعي عند بوبر

تميّزت فلسفة العلم عند كارل بوبر بأنها إبستمولوجيا موضوعية ذات نزعة عقلانية نقدية ، بحيث ارتكزت بشكل أساسي على المنهج الموضوعي الذي أقرّه كارل بوبر والذي يعتمد على النقد العقلي كقاعدة أساسية من أجل تمييز المعرفة العلمية عن المعرفة اللاعلمية ، بما يسهم في الوصول إلى الحقيقة العلمية ، وعرّف بوبر المنهج الموضوعي في كتابه منطق الكشف العلمي بقوله : (منهج العلم هو المنهج النقدي ، منهج المحاولة والخطأ ، منهج اقتراح الفروض الجريئة ، وتعريضها لأعنف نقد ممكن ، كي نتبين مواطن الخطأ فيها)[7] .

وضمن هذا السياق المعرفي أطلق بوبر مصطلح المنهج الموضوعي على منهجه العلمي الإبستمولوجي، وذلك تأكيداً على أنّ منهجه الموضوعي هو المنهج العلمي الذي يساعد على الوصول إلى المعرفة الموضوعية ، وذلك بخلاف المناهج العلمية الأخرى التي تعتمد على قواعد منهجية ذاتية، غير موضوعية، ولا تصلح لبناء المعرفة الموضوعية، ومن بين المناهج العلمية التي قام بوبر بنقدها واعتبرها بأنها غير صالحة لبناء المعرفة الموضوعية : منهج الاستقراء، حيث يعتبر بوبر بأن منهج الاستقراء قد أدى إلى تأخر التطور العلمي وذلك لأنه يعتمد على مبدأ الملاحظة الذاتية للباحث والتي يعتبرها أصحاب المنهج الاستقرائي بأنها الخطوة الأولى في بناء المعرفة الذاتية ، لذلك اعتبر بوبر بأن منهج الاستقراء منهج خاطئ لأنه منهج ذاتي غير موضوعي، ولأنه بعيد أشد البعد عن قواعد المنهج الموضوعي التي تسهم بشكل مباشر في تأسيس المعرفة الموضوعية ، ويؤكد بوبر بأن : (سبب الوقوع في مشكلة الاستقراء، هو أنّ العلماء يميزون بين نشاطهم العلمي والعلم الزائف بالطريقة نفسها التي يميّزون بها بين علمهم

7_ Karl R. Popper , Logic of Scientific Discovery , eighth impression , Hutchinson , London , 1976 , p . 54 .

واللاهوت والميتافيزيقيا، وقد اصطنعوا منهج الاستقراء بوصفه أداة تمييز بهذا الصدد منذ فرنسيس بيكون ، ومن ناحية أخرى كان لدى العلماء شغف عند تبرير النظريات بردِّها إلى منابع معرفية معينة مقارنة بما يقومون به بدرجة الوثوق الموجودة في منابع الدين والعقائد)[8] .

ويؤكد بوبر في فلسفته العلمية بأن المعرفة الموضوعية هي بناء علمي دائم التطور قاعدته الأساسية هي المنهج الموضوعي ، ويوضّح بوبر في نظريته المنهجية بأن المنهج الموضوعي عنده يتكون من الخطوات التالية :

(1_ المشكلة وهي : عادة تفنيد لنظرية موجودة.

2_ الحل المقترح أي : نظرية جديدة.

3_ استنباط القضايا القابلة للاختبار من النظرية الجديدة .

4_ الاختبار : أي محاولة التفنيد بواسطة التحقق والتجريب من ضمن وسائط أخرى .

5_ الأخذ بأفضل الحلول ، أي النظرية الأفضل من بين مجموعة النظريات المقترحة المتنافسة .)[9]

ويتبين من خلال عرض بوبر لخطوات المنهج الموضوعي عند بأن المعرفة الموضوعية تبدأ دائماً من المشكلات وتنتهي بصياغة النموذج العلمي الأفضل الذي يبقى في حالة منافسة علمية دائمة من أجل إثبات صدقه الموضوعي .

وضمن هذا السياق قام بوبر بنقد المعرفة الحسية التي يعدّها أغلب الفلاسفة بأنها نقطة البداية في نظرية المعرفة ، بحيث يتم استخدام الحواس باعتبارها المدخل الأول للوصول إلى الحقائق المعرفية واستنتاج القوانين العلمية المرتبطة بها (ولكن بوبر قام بنقدها

8_ Popper(Karl): Unended Quest An Intellectual Autobiography , OP .Cit , p . 79 .

9_ Bryan Magee , Karl Popper , edited by frank kermod , Viking Press New York , secone edition , 1973 , p . 50 .

وعدّها مجرد تشويش واضطراب بسيط ، على الرغم من أنها قدمت الأساس المنطقي لمعظم النظريات الفلسفية الحديثة عن المعرفة)[10] .

ويؤكد كارل بوبر أن من أبرز أهداف المنهج الموضوعي هو بناء معرفة موضوعية تتصف بالصدق الموضوعي الذي يتم التوصل إليه من خلال إتباع قواعد المنهج الموضوعي الذي يرتكز على عملية النقد الدائم للنظريات العلمية بما يحقق التطور المستمر لنظرية المعرفة الموضوعية ، وهذا ما يسميه كارل بوبر بالمذهب الموضوعي في المعرفة ، حيث إنّ (كل مذهب يقرر أنّ الذهن يستطيع أنّ يصل إلى إدراك حقيقة واقعية ، قائمة بذاتها ، مستقلة عن النفس المدركة ، فهو مذهب موضوعي والموضوعية هي وصف لما هو موضوعي ، وهي بوجه خاص مسلك الذهن الذي يرى الأشياء على ما هي عليه ، فلا يشوّهها بنظرة ضيّقة ، أو بتحيّز خاص)[11] .

وضمن هذا السياق اعتبر فيلسوف العلم كارل بوبر بأن المعرفة الحسية القائمة على الاعتبارات الذاتية هي معرفة ليست موضوعية ، لأن المعرفة الذاتية هي معرفة تابعة لرؤية محدودة وغير متطورة لأنها تعتمد على المنهج الذاتي المرتبط بتوجهات الذات العارفة التي تتأثر سلباً بمجموعة من المتغيرات الذاتية التي تنعكس بشكل خاطئ على البناء المعرفي الناتج عن المعرفة الذاتية ، ولذلك اعتبر بوبر بأن المعرفة الموضوعية يجب أن تخلو بشكل كامل من جميع الانفعالات التابعة للذات والتي تؤثر بشكل سلبي على عملية تحصيل المعرفة الموضوعية ، وهذا هو الأساس الموضوعي الذي أنشأ كارل بوبر عليه نظريته الموضوعية في المعرفة ، ويتبين من خلال ما تقدم أنّ : (الموضوعية العلمية تدرّب العقل على رؤية العالم بطريقة تحليلية مجرّدة)[12] .

10_ جمول ، د. إبراهيم : نظرية المعرفة العلمية بين المنهج والتطبيق ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2011، ص 29.

11_ صليبا ، جميل : المعجم الفلسفي ، الجزء الثاني ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982 ، ص (449 ، 450) .

12_ شيفرد ، ليندا : أنثوية العلم ، ت: د. يمنى الخولي ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1990 ، ص 134.

وعلى هذا الأساس يؤكد بوبر بأن المعرفة الموضوعية تقوم على أساس البحث الموضوعي عن الحقائق الموضوعية والتي تتصف بأنها حقائق متطورة لا تقف عند حدود علمية معينة ، بل إن آفاق التطور العلمي والتقدم المعرفي عند بوبر هي آفاق علمية مفتوحة على شتى أنواع المعارف والعلوم المتنوعة ، وهذا ما يجعل المعرفة الموضوعية عند بوبر تكتسب باستمرار ميزة المصداقية العلمية ، وذلك كونها معرفة مفتوحة وغير مقيدة بالنزعات الذاتية التي تحدّ من عملية التطور المعرفي والعلمي .

وبناءاً على ذلك تكون المعرفة الموضوعية عند بوبر مبنية على قواعد متينة من الموضوعية العلمية والتي ينتج عنها معارف تتصف بالأمانة العلمية البعيدة عن التحيّز المعرفي تجاه مذهب معرفي معين ، بحيث يعمل بوبر في الإبستمولوجيا الموضوعية عنده على الأخذ بالأسباب الموضوعية العلمية لكي يصل إلى النتائج الموضوعية التي ترتبط بالأسباب الموضوعية بشكل وثيق ، وبذلك يصبح الهدف الأساسي للمعرفة هو تحصيل المعرفة فقط ، وذلك بعيداً عن المصالح الذاتية ، وهذا يساهم بدوره في عملية التطور المعرفي والعلمي المستمر القائم على المنهج الموضوعي العلمي الذي يحقق قيمة الصدق الموضوعي .

ويقرر بوبر بأن المنهج الموضوعي هو النموذج العلمي الأفضل ، كونه يساعد فلاسفة العلم على بناء نظريات معرفية موضوعية وغير متأثرة بالتحيّز المعرفي الذاتي ، وبهذا يعمل المنهج الموضوعي على توجيه عملية البحث المعرفي نحو الموضوعات بعيداً عن الذات ، وذلك لأن بوبر يعتقد بأن المعرفة تكمن في الموضوع وليس في الذات ، حيث يعتبر بوبر بأن الموضوع المعرفي هو المصدر الأساسي لكل المعارف القائمة والتي سيتم اكتشافها لاحقاً من خلال المنهج الموضوعي ، وبذلك يؤكد بوبر بأن الإبستمولوجيا الموضوعية (تتكون من الأفكار العلمية والفلسفية ومخزونات الكتب والعقول الإلكترونية ، أي كل النظريات المصاغة لغوياً) [13] .

13_ الخولي ، يمنى : فلسفة كارل بوبر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 1989، ص 86 .

وهكذا تعتمد النظريات العلمية في فلسفة العلم على المنهج الموضوعي الذي يوجّه المعرفة بشكل موضوعي نحو دراسة الموضوعات المحيطة بالذات العارفة من خلال اكتشاف العلاقات السببية القائمة بينها بهدف استنتاج المعارف الموضوعية المرتبطة بها.

وإن أهم ما يميز المعرفة الموضوعية عند بوبر هو السعي الدائم لتحصيل قيمة الصدق المنطقي الموضوعي ، بحيث إن هذه القيمة المنطقية توجد فقط في المعرفة الموضوعية وفي النظريات المبنية عليها ، لأن المعرفة الذاتية لا تستطيع تحقيق قيمة الصدق المنطقي الموضوعي بسبب عدم تطبيقها لقوانين الموضوعية العلمية ، وبهذا الشكل يوجه بوبر أنظار فلاسفة العلم نحو دراسة العالم الطبيعي المليء بالموضوعات المادية ، وذلك من أجل دراستها بشكل موضوعي دقيق بهدف الوصول إلى العلاقات العلمية التي تربط بين الظواهر الموضوعية العلمية والتي تفسّر جميع التغيرات التي تطرأ على المعرفة باستمرار ، وهذا هو الأساس المعرفي الذي بنى بوبر عليه فلسفته الموضوعية في المعرفة ، حيث جعل بوبر من المنهج الموضوعي القاعدة الأساسية لأية عملية بحث معرفي موضوعي .

ومن بين أهم مميزات المنهج الموضوعي عند بوبر هو أنه منهج موضوعي مفتوح على جميع أنواع المعارف والعلوم وبعيد عن الأطر الذاتية التي تقيّد عملية البحث الموضوعي عن المعرفة ، وهذا ما دفع بوبر لاستخدام النقد كأحد أهم الأدوات المعرفية التي يعتمد عليها منهجه الموضوعي ، حيث يقول بوبر : (ولكنني أجد أنّ النظريات العلمية ليست أبداً مما يقبل التبرير أو التحقيق تماماً ، وإنما هي مما يقبل الاختبار ، ومن ثم فإنني سوف أقول أن موضوعية القضايا العلمية تكمن في الحقيقة القائلة بأنه يمكن اختبارها على نحو ذاتي متبادل) [14] ، ويتبين بذلك بأن المنهج الموضوعي عند بوبر يقوم على مبدأ الاختبار العلمي الموضوعي للمعارف ، بهدف التأكد الدائم من مصداقيتها ، وهذا هو جوهر الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر .

14 _ بوبر ، كارل : منطق الكشف العلمي ، ت : د. ماهر محمد ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1986، ص 81 .

حاول بوبر في فلسفته العلمية الموضوعية أن يُلبس صفة الموضوعية العلمية على جميع أطراف المعرفة ، وضمن هذا السياق يتبين بأنَّ : (ما يقصده بوبر بالموضوعية هنا هو أن تكون نظرياتنا عن تلك الخبرات الذاتية أو عن تلك العقول ينبغي أن تكون نظريات موضوعية مثلها مثل بقية النظريات ، والنظرية الموضوعية في نظره هي تلك النظرية التي تقبل البرهنة والتي يمكن أن تتعرض للنقد العقلي والتي نفضّلها على غيرها استناداً إلى قابليتها للاختبار ، وتمتد الموضوعية التي ينادي بها بوبر لتشمل مجالات عديدة منها : الإبستمولوجيا ، وفيزياء الكم ، والميكانيكا الإحصائية ، ونظرية الاحتمال ، وعلم الأحياء وعلم النفس ، والتاريخ)[15] .

وضمن هذا السياق يميّز بوبر بين المعرفة الموضوعية والمعرفة الذاتية ، حيث يتبين من خلال تحليل فلسفة كار بوبر العلمية بأنه يعتبر بأن المعرفة الذاتية هي معرفة ترتكز بشكل أساسي على الذات العارفة ، بينما المعرفة الموضوعية فهي معرفة ترتكز على الموضوعات التي تشكل القاعدة الأساسية لأية معرفة علمية حيث يوضح بوبر بأن : (المعرفة بالمعنى الموضوعي هي معرفة بدون عارف ، أي إنها معرفة بدون ذات عارفة) [16] .

ويؤكد بوبر بأن من بين أهم النتائج التي يتم التوصل إليها في المعرفة الموضوعية هو تحقيق قيمة الصدق الموضوعي والتي تعتبر القيمة الأساسية في المعرفة الموضوعية ، حيث يقول بوبر : (وهكذا أعارض بشدة الذين يخافون الصدق ، هؤلاء الذين يعتقدون أنّ الأكل من شجرة المعرفة خطيئة لا تغتفر) [17] ، وبذلك يجعل بوبر من عملية البحث

15 _ قاسم ، محمد : كارل بوبر نظرية المعرفة قي ضوء المنهج العلمي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1986 ، ص45.

16 – popper, karl : objective knowledge, an evolutionary app–roach , oxford, at the clarendon press , 1972 , p 109 .

17 – popper , karl : intellctual autobiography , in schilpp , 1974 , part 1 , p : 155 .

المعرفي عن الحقائق الموضوعية عملية مفتوحة وغير مقيّدة ، بحيث يهدف من عملية البحث الموضوعي عن المعارف الموضوعية إلى استبعاد جميع الأخطاء المعرفية التي تحدّ من عملية التطور المعرفي والتي تقيّد عملية التقدم العلمي عند مستوى معين ، ولذلك يؤكد بوبر باستمرار على أهمية منهج النقد العلمي الموضوعي في عملية البحث العلمي عن المعرفة الموضوعية .

وأكد كارل بوبر في فلسفته العلمية على أن النقد الموضوعي هو ما يميّز المعرفة الموضوعية عن المعرفة الذاتية ، حيث تميّزت الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر بالثبات العلمي على فكرة النقد العلمي الموضوعي والتي أكد بوبر على ضرورة استخدامها في عملية البحث العلمي عن المعرفة ، وضمن هذا السياق تسعى الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر لتحقيق التطابق الموضوعي الواقعي ، وذلك من خلال البحث الدائم عن حل المشكلات التي تعاني منها النظريات العلمية بهدف إيجاد الحل المناسب لها ، بما يساهم في تطوير هذه النظريات العلمية وتحقيق انسجامها مع الواقع الموضوعي ، بما يحقق تقدم واستمرار المعرفة العلمية بشكل دائم ، وبذلك (ينطلق بوبر من منطق المعرفة الموضوعية بوصفه فعلاً نقدياً مضاداً للدغمائية ، فيجعل من القفزات الابتكارية الخلّاقة القاسم المشترك بين نمو المعرفة وبين تطور الكائنات الحية حيث لا يأتي الجديد سواء بالمعرفة أو بالأعضاء الحيوية نتيجة تأقلم تكراري مع المحيط ، إنما كفعل انبثاق مختلف عن السابق وغير مضمون ، إذاً يبقى دائماً تحت الاختبار ومهدداً بالدحض)[18] .

وبذلك نستنتج أن بوبر يؤكد في نظريته المعرفية حول الإبستمولوجيا الموضوعية بأن : جميع المعارف والقوانين العلمية المرتبطة بها هي ذات منشأ موضوعي ، وإنها أشد البعد عن الذات ودوافعها الذاتية المتغيرة بحسب الظروف والميول النفسية المتعددة ، وبالتالي (الموضوعية هي إدراك الأشياء على ما هي عليه دون أن تشوهها نظرة ضيقة ذاتية أو أهواء أو ميول أو مصالح أو تحيّزات أو حب أو كره ، ولذا فإن وصف شخص بأن تفكيره موضوعي ، فإنّ هذا يعني أنه اعتاد أنّ يجعل أحكامه تستند إلى النظر إلى

18 _ خير بك ، فؤاد : من الإبستمولوجيا إلى المجتمع ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 2002 ، ص 59 .

الحقائق على أساس العقل وبعد معرفة كل الملابسات والظروف والمكونات ، والموضوعية هي الإيمان بأنّ لموضوعات المعرفة وجوداً مادياً خارجياً في الواقع ، وأن الحقائق يجب أن تظل مستقلة عن قائليها ومدركيها ، وأنّ ثمة حقائق عامة يمكن التأكد من صدقها أو كذبها ، وإن الذهن يستطيع أن يصل إلى إدراك الحقيقة الواقعية القائمة بذاتها ، مستقلة عن النفس المدركة ، إدراكاً كاملاً ، وأنه بوسعه أن يحيط بها بشكل شامل)[19] .

ويتبين من خلال ما تقدم بأن المنهج الموضوعي هو الركيزة الأساسية في الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر ، لأن عملية النقد العلمي الموضوعي تتم من خلال استخدام المنهج الموضوعي بهدف إيجاد الخلل المعرفي الذي تتعرض له النظريات العلمية باستمرار ، بما يساعد في استنتاج الحلول العلمية من أجل تصحيح النظريات المعرفية وجعلها أكثر تطابقاً مع الواقع العلمي الموضوعي .

ثالثاً : التوظيف الإبستمولوجي لنظرية التطور في بناء المعرفة الموضوعية

تميّزت الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر بأنها ذات نزعة تطورية داروينية ، حيث استخدم بوبر في الإبستمولوجيا الموضوعية قوانين التطور التي أقرها دارون في نظرية التطور ، حيث طبقها بوبر على النظريات المعرفية وأكد باستمرار بأن النظريات المعرفية هي نظريات تخضع لقانون التطور وهي نظريات غير ثابتة وغير مطلقة ، وهكذا يتبين بأنه (من الناحية المعرفية المنهجية ، بوبر دارويني حتى النخاع ، لذلك أضاف إلى عنوان كتابه : المعرفة الموضوعية ، تذييلاً هو تناول تطوري)[20] .

وبالعودة إلى تشارلز دارون صاحب نظرية التطور ، يتبين بأن دارون قد أكد في نظريته عن التطور أنَّ جميع الكائنات الحية الموجودة في العالم تتنازع وتتصارع فيما بينها من أجل البقاء ، فالبقاء للأقوى دائماً والموت للضعيف ، وهذا ما أطلق عليه دارون بقانون

19 _ المسيرى ، عبد الوهاب : دراسات معرفية في الحداثة الغربية ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، 2006 ، ص 357.

20 _ الخولي ، يمنى : فلسفة كارل بوبر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 1989 ، ص 181 .

الانتخاب الطبيعي ، واعتبر دارون بأن الكون بأسره قائم على هذا القانون ، ونتيجة لقانون الانتخاب الطبيعي تكتسب الكائنات المتبقية والتي ظفرت بالبقاء صفات جديدة تتناسب مع الواقع المتطور وتميّزها عن الكائنات الأخرى التي خسرت بقائها بسبب عدم امتلاكها لهذه الصفات البيولوجية الفريدة والتي تميّز الكائنات الحية الأقوى عن الكائنات الحية الأضعف منها ، وهذا بدوره يساهم على مرور العصور والأزمنة بتكيّف الكائنات الحية مع العوامل البيئية المتغيرة ، بما يحقق التكيف المناسب مع هذه العوامل البيئية المتعددة ، وهنا يقول دارون : (وبما أن عدد الذين يولدون من كل نوع هو أكبر من أن يعيش وبما أنه بالتالي ، هناك صراع يتكرر كثيراً من أجل البقاء ، فالذي يحدث بعد ذلك هو : لو أن أي كائن تمايز بأي قدر بسيط ، وبأي وسيلة مفيدة له ، تحت تأثير ظروف الحياة المعقدة والكثيرة التغيير فسوف تكون له فرصة أفضل للاستمرار في الحياة ، وبالتالي سوف يتم انتقاؤه طبيعياً وبناءً على المبدأ القوي للوراثة فإنّ أيَّ ضرب منتقى سيميل إلى الإكثار من شكله الجديد والمعدّل) [21] .

وعمل بوبر في الإبستمولوجيا الموضوعية على تطبيق قانون الانتخاب الطبيعي بكل تعاليمه على النظريات المعرفية ، حيث يقرر بوبر بأنه عندما تصبح النظريات المعرفية عقيمة وغير قادرة على تقديم الحلول السليمة للمشاكل التي تعترض الواقع العلمي ، فإنه يجب وضع مجموعة من الفروض العلمية المتنوعة من أجل إيجاد الحلول المناسبة لهذه النظريات العلمية ، ومن ثم يجب القيام باختبار هذه الفروض العلمية من خلال منهج الدحض عند كارل بوبر بالاعتماد على قانون الانتخاب ، وبالتالي ، فإن تمّ التوصل إلى إيجاد الفروض العلمية المناسبة لتطوير النظريات وحل المشاكل التي تعترض طريق التقدم العلمي ، فإنه يتم الحفاظ على هذه النظريات كونه تمّ التمكن من تطويرها علمياً ، لكن إذا لم يتم التمكن من تطوير هذه النظريات العلمية بما يخدم حل المشاكل العلمية التي تعترضها فإنه يجب التخلص من هذه النظريات العلمية واستبدالها بنظريات أخرى

21 _ دارون ، تشارلز : أصل الأنواع ، ت : مجدي المليجي ، تقديم : سمير صادق ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2004 ، ص 58 .

قادرة على حل المشاكل العلمية التي تعيق التقدم المعرفي ، وهذا بدوره يسهم بشكل فعّال في تطوير البناء المعرفي الموضوعي بشكل دائم .

وأوضح فيلسوف العلم كارل بوبر أن الإبستمولوجيا التطورية تنصّ على أن المعرفة تتطور باستمرار من دون توقف وهذا التطور يطرأ على المضمون المعرفي بشكل كامل لجميع النظريات والأسس والقوانين والمعارف المتعددة ، لكن يؤكد بوبر أن عملية التطور المعرفي تعاكس عملية التطور البيولوجي ، حيث إن عملية التطور البيولوجي كما شرحها عالم الأحياء دارون تنصّ على أن جميع الكائنات الحية الموجودة في العالم يعود أصلها إلى منشأ واحد وهو الكائنات وحيدة الخلية ، حيث تطورت هذه الكائنات وحيدة الخلية بحسب الظروف البيئية المتنوعة ونتج عن تطورها الأصناف المتنوعة للكائنات الحية الموجودة خلال تعاقب الأزمنة وحتى يومنا هذا ، والتي استطاعت أن تتكيف مع العوامل والظروف البيئية المختلفة بما يحقق استمرار بقائها ، بينما يؤكد بوبر على أن عملية التطور المعرفي لا تعود إلى أصل واحد بل هي تبدأ من أصول مختلفة ومتعددة ولكنها تنتهي إلى أصل واحد ، وهذه الأصول المتعددة تشمل جميع أنواع المعارف والنظريات العلمية المتنوعة التي تتنازع معرفياً فيما بينها من أجل تقديم أفضل الحلول المعرفية للمشاكل التي تعترض الحقل العلمي والمعرفي باستمرار ، حيث يوضح بوبر أنَّ : (المعرفة البحتة لم تبدأ بأصل واحد ، بل بعدد كبير من الأصول : توقعات فطرية ، نزوعات ، خرافات ، أساطير ، نظريات ميتافيزيقية ، كانت تهيم في الهواء ، وأخذت تقترب وتتجمع وتسير إلى جذع واحد رسخ في الأرض) [22] .

وإن عملية التطور المعرفي عند بوبر لا تقف عند حد معين ، حيث يبين بوبر بأن التطور المعرفي يشمل أيضاً تطوير المناهج العلمية باستمرار من أجل إيجاد الحلول المناسبة لجميع المشاكل العلمية التي تعترض طريق التقدم العلمي ، وبذلك تصبح المعرفة عند بوبر معرفة مفتوحة وغير مقيدة بمنهج علمي معين ، بل إن لكل مرحلة من مراحل تطور المعرفة مناهجها العلمية المرتبطة بها ، وعند الانتقال لمرحلة علمية أخرى

22 _ الخولي ، يمنى : فلسفة كارل بوبر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 1989 ، ص 181 .

أكثر تطوراً فإنه يتم تطوير المناهج المعرفية بشكل دائم بما يتوافق مع المرحلة العلمية الراهنة ، ويؤكد بوبر ضمن هذا السياق أنَّ المعرفة ليست مطلقة ، بل هي متغيرة باستمرار وفقاً لتغير الظروف والتحديات العلمية التي تواجه العلماء وفلاسفة العلم في المجالات العلمية والمعرفية والفلسفية المتنوعة .

ويبين بوبر أنَّ المرحلة التي يتم فيها إيجاد الحلول للمشاكل العلمية التي تعيق تقدم العلم وفلسفته تعد بمثابة انتصار علمي ومعرفي جديد ، وهذا الانتصار يطلق عليه اسم التكيّف المعرفي والعلمي ، حيث تصبح المعرفة ضمن هذه المرحلة متكيفة مع مختلف العقبات المعرفية التي صادفتها ، وتستطيع تقديم الحلول المناسبة لتجاوزها باستمرار ، ووفقاً لذلك يقول بوبر : (يشكِّل تكيف الحياة مع بيئتها شكلاً من أشكال المعرفة ، ودون هذا الحد الأدنى من المعرفة لا يمكن للحياة أنّ تستمر ، وهذه المعرفة معرفة بشروط حياتية شديدة العمومية ، وإما يجب لهذه الشروط أيّ البيئة التي تحدثت عنها أنّ تتكيف مع الحياة ، أو أنّ تتكيف الحياة مع البيئة ، فهذا أمر يقوم بالطبع على علاقة التبادل) [23] .

وبالاستناد إلى ذلك يبين بوبر أنَّ قانون التطور المعرفي أيضاً يخضع لمبدأ التكيف المعرفي مع العقبات المعرفية التي تعترض طريق التقدم العلمي باستمرار ، وبالتالي فإن عملية التطور المعرفي هي عملية غير مقيدة بقوانين معينة ، بل إن قانون التطور المعرفي هو قانون ذو أطر مفتوحة على جميع العوامل والأدوات المعرفية التي تساهم بشكل فعال في عملية التطور المعرفي ، وإن عملية التطور المعرفي تتقدم عند الانتقال من عقبة معرفية إلى عقبة معرفية أخرى ، بما يحقق إيجاد القوانين العلمية التي تقدم حلاً للمشاكل المعرفية التي تعيق طريق التقدم العلمي .

وهنا يبين بوبر بأن الإبستمولوجيا الموضوعية تتميز بأنها قادرة دائماً على استنتاج الحلول المعرفية المبتكرة من خلال استخدام المنهج الموضوعي الذي يساعد فلاسفة العلم

23 _ بوبر ، كارل : الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، ت: د. بهاء درويش ، دار الحرمين ، الإسكندرية ، 1998، ص 142 .

على إيجاد الفروض العلمية المناسبة لعملية الاختبار الموضوعي ، بما يحقق التقدم المعرفي الذي يتوافق مع الوقائع المعرفية القائمة في عالم موضوعات المعرفة ، والبعيد عن الذات وسيكولوجيتها ذات الأثر السلبي على عملية البحث العلمي عن المعرفة .

ويتضح مما سبق أنَّ منهج النقد عن بوبر هو المنهج الموضوعي الذي أرسى قواعده من خلال الإبستمولوجيا الموضوعية التي أسسها وفقاً لمبادئ نقدية موضوعية ، وبذلك تبتعد الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر عن خاصية الانغلاق المعرفي ، ويصبح فيلسوف العلم كارل بوبر من أهم دعاة الانفتاح المعرفي في القرن العشرين ، وهذا بدوره جعل الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر إبستمولوجيا ثورية متطورة ، حيث استطاعت المعرفة الموضوعية عند بوبر من أن تشكل ثورة معرفية واضحة المعالم على جميع أشكال المذاهب المعرفية التي سبقتها ومن أبرزها المذهب التجريبي والمذهب الوضعي المنطقي ، وهنا يتبين بأن : (الواقع أن رفض بوبر لمذاهب الوضعيين ولأطروحاتهم الإبستمولوجية راجع إلى تصوره لموضوعية الأساس التجريبي لنظريات العلم ، ذلك لأن المعرفة العلمية في نظر بوبر ينبغي أن تكون موضوعية ومستقلة تماماً عن كل ما هو من نظام ذاتي سيكولوجي ، وقد أحكم صياغة هذا المطلب المنهجي الأساسي بقوله : إنّ موضوعية القضايا العلمية تكمن في الحقيقة القائلة بأنه يمكن اختبارها على نحو ذاتي متبادل أو بطريقة بين ذاتية ، ومن هنا فلا يمكن أن نقبل في العلم بقضايا لا يمكن اختبارها أو استبعادها بطريقة موضوعية) [24] .

ونستنتج مما تقدم : أن فيلسوف العلم كارل بوبر قد تمكن من توظيف نظرية التطور عند دارون توظيفاً إبستمولوجياً ، من خلال تأكيده على أن المعرفة كالحياة البيولوجية تتطور باستمرار من دون توقف ، وإن عملية التطور المعرفي ترتكز على العقبة المعرفية التي تكمن في المشاكل العلمية التي تعيق تطور العلم ، وبذلك يصبح تطور المعرفة مرهون بالمشكلات التي تعترض طريقها ، وضمن هذا السياق تصبح آلية التطور المعرفي كامنة

24 _ يوسف ، نعيمة : مشكلة الاستقراء في إبستمولوجيا كارل بوبر ، دار الروافد الثقافية ، بيروت ، 2015 ، ص (146، 147) .

في الانتقال من تقديم حل لمشكلة إلى تقديم حل لمشكلة أخرى ، وإن عملية التطور المعرفي قد ساهمت بشكل فعال في تطوير الوعي الإنساني للمعرفة وفي زيادة الفهم الإنساني للمحتوى المعرفي المتجدد ، بحيث تحولت العقبة المعرفية إلى نقطة البدء في عملية التطور المعرفي القائم على التجدد العلمي المستمر في المنهج العلمي والأدوات المعرفية المرتبطة به .

رابعاً : الدور الإبستمولوجي للعقلانية الموضوعية عند بوبر

أسس كارل بوبر الإبستمولوجيا الموضوعية على مجموعة من المفاهيم الإبستمولوجية التي ميّزت فلسفته العلمية عن باقي الفلسفات العلمية الأخرى ، ومن بين أهم هذه المفاهيم الإبستمولوجية مفهوم معيار قابلية التكذيب الذي يعده بوبر من أهم المعايير التي يتم الاستناد عليها في بناء المعرفة الموضوعية ، حيث يتم الاعتماد على معيار قابلية التكذيب المعرفي من أجل تمييز القضايا العلمية عن القضايا غير العلمية ، فالقضايا العلمية كما يوضّح بوبر هي القضايا التي تقبل تطبيق معيار قابلية التكذيب على مضمونها المعرفي ، بينما القضايا غير العلمية فهي القضايا التي لا تقبل تطبيق معيار قابلية التكذيب على مضمونها المعرفي ، ويشير معيار قابلية التكذيب المعرفي إلى مدى قدرة النظريات المعرفية المختلفة على الخضوع للاختبار العلمي للمعارف ، وهذا يساعد على قياس قيمة الصدق المنطقي عند النظريات العلمية المختلفة ، (إذن الاستنباط هو منهج التكذيب ، لأنه أساس منهج العلم ، وكل هذا يعني أن فكرة القابلية للتكذيب كمعيار ، تكاد تكون بديهية ، لأنها لا تعني أكثر من أن العبارة موضع البحث يجب أن يلزم عنها نتائج ، تسمح من حيث صورتها أو خاصيتها بأن تكون كاذبة ، وهذا بدوره لا يعني أكثر من أن القانون الفيزيائي بصفة عامة يمكن أن تختبره التجارب)[25] .

25 _ayer , aj : truth , verification and verisimilitude , in the philosophy of karl popper , volume two , P (684- 687) .

وبهذا المسار المعرفي وضع بوبر المعرفة موضع الشك ، وأوضح أن السمة الحقيقية للمعرفة الموضوعية الصادقة تتمحور حول مدى قابليتها للتكذيب والاختبار ، وبذلك ألغى بوبر صفة المطلق عن المعرفة ، لأن المعرفة لكي تكون موضوعية يجب أن تكون قابلة للخضوع لمعيار قابلية التكذيب المعرفي ، ويجب أن تكون قابلة للتحقق من صحتها معرفياً وعلمياً ، وبالتالي : (إن أحد أهداف العلم الأساسية هو درجة عالية من التكذيب ، وهذا لن يتحقق بدوره إلاّ بتوافر درجة عالية من المحتوى المعرفي للنظرية)[26] .

ويرتبط معيار قابلية التكذيب المعرفي بالبحث العلمي عن المعرفة الموضوعية ومصداقيتها ارتباطاً وثيقاً ، حيث إن الهدف الأساسي من البحث العلمي عن المعرفة الموضوعية هو الوصول إلى معارف تتصف بالصدق المنطقي ، وهذا بدوره يساعد فلاسفة العلم والباحثين عن المعرفة الموضوعية في تمييز المعرفة العلمية عن المعرفة اللاعلمية من خلال مدى قدرتها على التطابق مع الواقع العلمي الصحيح ، وذلك من خلال قياس مدى قدرتها على الصمود أمام الاختبارات العلمية المتتالية التي تخضع لها باستمرار ، بحكم الواقع العلمي المتطور باستمرار .

وضمن هذا السياق نفى بوبر صفة التراكمية العلمية عن المعرفة الموضوعية ، حيث أكد بوبر على أن المعرفة الموضوعية لا تسير وفق منهج التراكمية المعرفية ، بل إن المعرفة الموضوعية غير تراكمية ، والدليل على ذلك هو أن المعارف على اختلافها تنتهي صلاحيتها عندما لا تعد قادرة على مواكبة روح العصر العلمية ، حيث يتم استبدالها بمعارف علمية أكثر توافقاً مع الروح العلمية السائدة في العصر الراهن ، وهذا بدوره يشكل المحرك الأساسي لعملية البحث المعرفي عن المعرفة الموضوعية ، وبذلك تصبح المعرفة الموضوعية عند بوبر هي معرفة غير قابلة للتبرير بل هي معرفة قابلة للنقد والاختبار فقط وبالتالي : (بحسب بوبر ، فإن مغزى النقد يتعاظم ، وله مغزى ضبطي كبير في كل مجال نمو وتقدم ، من الشخصي إلى الاجتماعي ، ولم يدّع بوبر أبداً أن بإمكاننا المحاججة بحقيقة المقولات الغريبة للوصول إلى صحة النظريات ، ولا يمكن أنّ

26 _ قاسم ، محمد : كارل بوبر ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1986 ، ص 168 .

ترسى صحة النظريات أو حتى مجرد احتماليتها تحت وطأة النتائج المحققة ، والنظرية العلمية هي ليست تلك التي تفسّر كل شيء يحدث ، وقد تحكم أيضاً معظم ما يمكن أنّ يؤول على أنه حاصل ، إنها في حالة مجازفة مستمرة ، إنها الخصيصة الرئيسية للنظرية العلمية الأصيلة ، وعند الحديث عن محتوى الحقيقة وهو أكثر ما يحظر على المرء التعامل معه بحسب بوبر ، فقابلية التكذيب هي المعيار الفاصل بين العلم وغير العلم)[27]

ويؤكد بوبر بأن العقلانية الموضوعية تتأسس على الوعي الموضوعي الشامل لجميع مكونات المعرفة ومبادئها الموضوعية ، حيث يوجه الوعي الموضوعي العقل المدرك نحو التركيز على آلية استنتاج المعرفة الموضوعية بما يضمن تطبيق معيار قابلية التحقق المنطقي على جميع المعارف التي تم استنتاجها، وبالتالي : (يؤدي الوعي إلى تيقّظ معزّز وانتباه مركّز ، يحسّن كلاهما المعالجة الصورية لمحتويات معينة ويمكنهما بالتالي المساعدة على الوصول بالاستجابات الفورية والمخطّطة إلى الحدّ الأمثل، والنتيجة الإجمالية هي تنبّه أكثر ، وتركيز أكثر حدّة ، ونوعية أعلى من معالجة الصورة) [28] .

ويؤكد بوبر على أن امتلاك العقل الموضوعي هو السلاح الذي يحمي العقلانية الموضوعية من الوقوع في فخ العثرات المعرفية ، وبذلك تستطيع العقلانية الموضوعية عند بوبر من أن تنشأ جسراً معرفياً قوياً مهمته الربط بين مختلف المعارف ، بما يضمن التفسير العلمي الصحيح للظواهر العلمية الموجودة في الواقع العلمي الموضوعي ، وهنا تبرز قيمة العقل الموضوعي في تحديد نقاط القوة ونقاط الضعف في كل نظرية علمية من أجل وضع الفروض العلمية المناسبة بما يضمن استبعاد الأخطاء المعرفية وتصحيح مسار المعرفة الموضوعية باستمرار وذلك من خلال إتباع قواعد المنهج العلمي الموضوعي الذي أقره بوبر ، وهذا المنهج الموضوعي هو المنهج النقدي الذي ميّز

27 _ هيلي ، باتريك : صور المعرفة ، ت: نور الدين عبيد ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، 2008 ، ص (143 – 144) .

28 _ داماسيو ، أنطونيو : الشعور بما يحدث ، ت: رفيف غدّار ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، 2010 ، ص 187 .

العقلانية الموضوعية عند بوبر عن غيرها من المذاهب العقلية الأخرى التي اختلفت عنها بالمنهج والمضمون المعرفي .

وإن القراءة التحليلية للعقلانية الموضوعية عند بوبر تبين أن بوبر قد قام بتقسيم المعرفة إلى ثلاثة مستويات ، وذلك وفقاً لتقسيمه للعالم إلى ثلاثة عوالم بدءاً من العالم الفيزيائي ، ووصولاً للعالم النفسي وانتهاءً بالعالم الثالث الموضوعي وهو عالم المعرفة الموضوعية ، واعتبر بوبر بأن العقلانية الموضوعية تتحقق فقط في العالم الثالث : عالم المعرفة الموضوعية ، وأكد بوبر بأنه لا يتحقق الإدراك الكامل للمعرفة الموضوعية إلا من خلال الربط الموضوعي والمنطقي بين مستويات المعرفة الثلاث ، والتي تتجسد بشكل فعلي ومنطقي في العوالم المعرفية الثلاثة التي حددها فيلسوف العلم كارل بوبر بقوله : (في هذه الفلسفة يتألف عالمنا من ثلاثة على الأقل من العوالم الفرعية الواضحة المعالم ، أو قل من ثلاثة عوالم ، الأول هو العالم الفيزيقي ، أو عالم الحالات الفيزيقية والثاني هو عالم الشعور أو عالم الحالات الذهنية ، والثالث هو عالم الأفكار بالمعنى الموضوعي ، وهو عالم النظريات في ذاتها ، وعلاقاتها المنطقية ، عالم الحجج في ذاتها ، والمشكلات في ذاتها ومواقف المشكلات في ذاتها ، ولقد أخذت بنصيحة السير جون إيكسلز ، وأطلقت عليها أسماء : العالم الأول ، والعالم الثاني ، والعالم الثالث) [29] .

وتتجسد العقلانية الموضوعية عند بوبر في العالم الثالث الموضوعي ، حيث يقرر بوبر بأن العالم الثالث الموضوعي يتضمن جميع أنواع المعارف والعلوم والنظريات والقوانين والكتب والأفكار ، إنه تحصيل حاصل لجميع المصادر المعرفية والعقول العلمية المساهمة في بناء المعرفة وتحديد قواعدها المنطقية وفق الأسس العلمية الموضوعية الصحيحة ، وأكد بوبر على أهمية الترابط المنطقي بين العوالم الثلاثة التي ذكرها ، حيث أكد على أنه لا يمكن الاستغناء عن أي عالم من هذه العوالم المعرفية الثلاثة ، لأن لكل عالم مهمته المعرفية المرتبطة به ، بحيث لا يمكن إتمام الفهم الموضوعي للمعرفة

29 _ بوبر ، كارل : بحثاً عن عالم أفضل ، ت: د. أحمد مستجير ، الهيئة المصرية العامة ، (د، م) ، 1992 ، ص 198.

الموضوعية العقلانية إلاّ من خلال فهم الترابط المنطقي القائم بين العوالم الثلاث بشكل موضوعي وصحيح .

وضمن هذا السياق يوضح بوبر بأن المضمون المعرفي لعالم المعرفة الموضوعية هو مضمون متطور باستمرار ، وذلك وفقاً لتطور المعارف التي يتضمنها ، حيث يقول بوبر : (ومن وجهة نظري يمكن أن نفهم عملية فهم موضوع من العالم3 على أنه عملية نشطة ، إن علينا تفسيرها على أنها عملية صنع ، إعادة خلق هذا الموضوع ، فلكي نفهم جملة لاتينية صعبة فإن علينا أن نعرّبها : أنّ نرى كيف صنعت ، وأن نعيد بناءها ، نعيد صنعها ، ولكي نفهم مشكلة ما فإن علينا أن نجرّب على الأقل بعض الحلول الأكثر وضوحاً ، وأن نكتشف أنها تفشل ، بذلك نعيد اكتشاف أن هناك صعوبة _ مشكلة ولكي نفهم نظرية ما فإن علينا أولاً أن نفهم المشكلة التي صمّمت النظرية لكي تحلها ، ونرى ما إذا كانت النظرية أكثر جدوى من أيّ من الحلول الأكثر وضوحاً) [30] .

وإن عملية التطور المعرفي في العالم الثالث الموضوعي تتم عن طريق حذف معارف معينة ، وإضافة معارف أخرى إلى المحتوى المعرفي ، فكل نظرية يتم حذفها من عالم المعرفة الموضوعية لعدم استجابتها للواقع الموضوعي المتغير ، تسهم في تطوير عالم المعرفة الموضوعي ، وكذلك كل نظرية معرفية يتم استنتاجها وإضافتها إلى عالم المعرفة الموضوعية تسهم أيضاً في تطوير المعرفة الموضوعية ، حيث تسير عملية التطور المعرفي للمعرفة الموضوعية بشكل لا نهائي ومن دون توقف .

نستنتج مما تقدم بأن بوبر قد رفض جميع المناهج الذاتية في المعرفة والتي تعتمد على الاستقراء الذاتي واعتبر أنها طرق خاطئة في تحصيل المعارف العقلانية الموضوعية ومن ثمّ (هكذا كان موقف بوبر من الاستقراء ، المنهج والمبدأ ، الرفض التام لكل منهما ذاهباً إلى أنهما لا يتفقان والطريقة التي ينمو بها العالم ويتقدم) [31]، لذلك دعا بوبر إلى

30 _ بوبر ، كارل : النفس ودماغها ، ت: د. عادل مصطفى ، دار رؤية ، القاهرة ، 2012 ، ص (82 _ 83) .

31 _ قاسم ، محمد : كارل بوبر ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، 1986 ، ص 143.

إتباع المنهج الموضوعي في المعرفة من أجل نقد المعارف وإعادة تصحيح مسارها المعرفي ، وإن الصفة الأساسية للمنهج الموضوعي عند بوبر هي الاستنباط حيث يعمل المنهج الموضوعي باستمرار على استنباط المعارف التي تنسجم مع قيمة الصدق المنطقي الذي يحدد مدى موضوعية المعارف العلمية .

الخاتمة ونتائج البحث:

تناول هذا البحث إشكالية (**البعد الإبستمولوجي في نظرية المعرفة الموضوعية عند كارل بوبر**) بالدراسة النقدية والتحليل الإبستمولوجي ، حيث تمّ التركيز على دراسة أهمية المعايير المنطقية للمعرفة الموضوعية عند بوبر ، كما وتمّ التركيز على دراسة أهمية المفهوم الإبستمولوجي للمنهج الموضوعي في الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر ، كما وتمّ التركيز على دراسة آلية التوظيف الإبستمولوجي لنظرية التطور في المعرفة الموضوعية عند بوبر ، كما وتمّ استنتاج الدلالات المعرفية للدور الإبستمولوجي للعقلانية الموضوعية عند بوبر .

وإن أهم النتائج التي تمّ التوصل إليها في هذا البحث : هو أنّ الإبستمولوجيا الموضوعية عند كارل بوبر قد ساهمت بشكل فعّال في تطور المعرفة العلمية من خلال اعتماد المنهج الموضوعي الذي يستخدم لتمييز المعرفة العلمية عن المعرفة غير العلمية ، وذلك من خلال إخضاع المعارف لمعيار قابلية التكذيب ، فالمعارف القابلة لتطبيق معيار قابلية التكذيب هي معارف تصّنف بأنها علمية ، بينما المعارف الغير قابلة لتطبيق معيار قابلية التكذيب المعرفي عليها فهي معارف غير علمية .

وتبين أيضاً من خلال الدراسة التحليلية والنقدية للإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر : بأن بوبر قد طبق قوانين نظرية التطور التي وضعها عالم الأحياء دارون على نظرية المعرفة الموضوعية عنده ، حيث أوضح بوبر بأن الميزة الأساسية للمعرفة الموضوعية هي أنها معرفة متطورة تتطور من خلال استخدام المنهج النقدي الموضوعي الذي أكد بوبر على ضرورة استخدامه على مختلف أنواع المعارف والنظريات العلمية بهدف تطويرها بشكل دائم .

كما وتم التوصل إلى نتيجة مفادها : أن الإبستمولوجيا الموضوعية عند بوبر هي إبستمولوجيا عقلانية تطورية ، تعتمد على مبدأ الانتخاب المعرفي بين المعارف بهدف حذف المعارف التي لا تناسب الواقع العلمي المتطور ، وبهدف الحفاظ على المعارف التي تواكب التطور المعرفي القائم في عالم المعرفة الموضوعية وتطويرها بشكل دائم ، وهذا بدوره يحقق مبدأ التكيف للنظريات المعرفية الموجودة في عالم المعرفة الموضوعية مع الواقع العلمي المتطور ضمن العالم الثالث الموضوعي ، وهذا بدوره أكد على أن المعرفة الموضوعية عند بوبر تدحض مبدأ التراكمية العلمية وتؤكد على أنّ المعرفة متطورة وغير مطلقة .

وتتجسد القيمة التطبيقية لهذا البحث على مستويين :

أولاً : المستوى العلمي : حيث تبين من خلال النتائج العلمية التي تمّ التوصل إليها في هذا البحث : بأن المنهج العلمي الموضوعي الذي أقره فيلسوف العلم كارل بوبر ، يعدّ من أهم المناهج المستخدمة في العلوم كافةً ، لأنه يتيح للباحث العلمي القدرة على تحليل المشكلات العلمية التي يصادفها في أبحاثه العلمية ، بما يسهم في إيجاد الحلول العلمية المناسبة لهذه المشكلات العلمية ، وذلك يوفّر الكثير من الجهد والوقت على الباحث العلمي ، وذلك من خلال إتباع القواعد المنهجية التي أقرها كارل بوبر في منهجه

الموضوعي ، وذلك يحقق المزيد من التقدم العلمي والفائدة العلمية على مستوى العلوم كافةً .

ثانياً : المستوى المعرفي : قدّم هذا البحث فائدة معرفية تتجسد في تحليل البعد الإبستمولوجي في نظرية المعرفة الموضوعية عند فيلسوف العلم كارل بوبر ، بما أسهم في التأكيد على أهمية البحث الإبستمولوجي ودوره الفعّال في تطوير مناهج المعرفة العلمية ، وذلك يساعد على تطوير العلم بشكل دائم ، ويؤكد على أنَّ المعرفة العلمية هي معرفة متطورة باستمرار ولا تتوقف عند حد معين ، لذلك يجب نقد المعرفة العلمية دائماً بهدف تطويرها ، بما يسهم في نقل المعرفة العلمية من منطق التبرير الذاتي إلى منطق الكشف والتقدم العلمي الموضوعي ، وهنا تتجسد القيمة التطبيقية لمنهج بوبر الموضوعي النقدي في نقد المعارف العلمية بهدف تطوير ميدان البحث الإبستمولوجي ، وهذا بدوره يؤكد على أهمية الإبستمولوجيا كمبحث معرفي يهدف إلى نقد الأخطاء الكامنة في النظريات العلمية بهدف تصحيح مسارها العلمي بشكل دائم .

المصادر والمراجع:

1_ اختيار ، ماهر : إشكالية معيار قابلية التكذيب عند كارل بوبر في النظرية والتطبيق ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2010 .

2_ الخولي ، يمنى : فلسفة كارل بوبر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 1989 .

3_ المسيرى ، عبد الوهاب : دراسات معرفية في الحداثة الغربية ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، 2006 .

4_ بوبر ، كارل : منطق الكشف العلمي ، ت : د. ماهر محمد ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1986 .

5_ بوبر ، كارل : الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، ت: د. بهاء درويش ، دار الحرمين ، الإسكندرية ، 1998 .

6_ بوبر ، كارل : بحثاً عن عالم أفضل ، ت: د. أحمد مستجير ، الهيئة المصرية العامة ، (د، م) ، 1992 .

7_ بوبر ، كارل : النفس ودماغها ، ت: د. عادل مصطفى ، دار رؤية ، القاهرة ، 2012 .

8_ جمول ، د. إبراهيم : نظرية المعرفة العلمية بين المنهج والتطبيق ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2011 .

9_ خير بك ، فؤاد : من الإبستمولوجيا إلى المجتمع ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 2002 .

10_ دارون ، تشارلز : أصل الأنواع ، ت : مجدي المليجي ، تقديم : سمير صادق ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2004 .

11_ داماسيو ، أنطونيو : الشعور بما يحدث ، ت: رفيف غدّار ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، 2010 .

12_ شيفرد ، ليندا : أنثوية العلم ، ت: د. يمنى الخولي ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1990

13_ صليبا ، جميل : المعجم الفلسفي ، الجزء الثاني ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، 1982 .

14_ قاسم ، محمد : كارل بوبر ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1986 .

15_ قاسم ، محمد : كارل بوبر نظرية المعرفة قي ضوء المنهج العلمي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1986 .

16_ هيلي ، باتريك : صور المعرفة ، ت: نور الدين عبيد ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، 2008 .

17_ يوسف ، نعيمة : مشكلة الاستقراء في إبستمولوجيا كارل بوبر ، دار الروافد الثقافية ، بيروت ، 2015 .

18_ ayer , aj : truth , verification and verisimilitude , in the philosophy of karl popper , volume two .

19_ popper, karl : objective knowledge, an evolutionary app-roach , oxford, at the clarendon press , 1972 .

20_ popper , karl : intellctual autobiography , in schilpp , 1974 , part 1 .

21_ Karl R. Popper , Logic of Scientific Discovery , eighth impression , Hutchinson , London , 1976 .

22_ Popper (Karl) : Unended Quest An Intellectual Autobiography , OP .Cit .

23_ Bryan Magee , Karl Popper , edited by frank kermod , Viking Press New York , secone edition , 1973 .